سورة النازعات

مكية، وهي سبع وأربعون آية مع البسملة

هذه السورة مكية عند عبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير. وقد أجمع المفسرون على أنها مكية، ولا يوجد أي اختلاف في هذا. (فتح البيان)

إن ما يربط هذه السورة بالتي قبلها هو أن الله تعالى قد بيّن في السورة السابقة للكافرين أنكم تحتقرون المسلمين اليوم وتسخرون منهم لقلّة عددهم متسائلين: أي انقلاب ستُحدثه هذه الحفنة من الناس في الدنيا؟ فاعلموا أنهم سينتصرون عليكم يومًا، وتصبحون أذلّة صاغرين. علمًا أن عدد المسلمين لم يكن قد تجاوز أربعين شخصًا لدى نزول السورة السابقة (النبأ)، ومع ذلك أخبر الله تعالى فيها أنه سيأتي يوم يصبح فيه المسلمون غالبين ويأمرون المشركين بمغادرة مكة.

والواقع أن الأنبياء عندما يدلون بالأنباء يصبح الناس فئتين؛ فئة تنظر إلى الأمور كلها نظرة روحانية، فإذا قيل لهم قد قال الله كذا وكذا، فغاية ما يهتمون به هو مدى صحة صدور هذا النبأ عن الله تعالى، فإذا علموا بأن الله تعالى هو الذي قال هذا اطمأنوا موقنين بأنه واقع لا محالة؛ وفئة أخرى لا يطمئنون وإن علموا أن هذه النبوءة صادرة من الله تعالى وليست افتراءَ بشر، بل يريدون أن يروا في هذه الدنيا المادية آثارًا مادية دالّة على تحقُّقها. يقولون: كلما أراد الله تعالى فِعل شيء سخّر له أسبابًا، ولا يقوم بشيء بدون سبب، ولكنا لا نرى في الدنيا أية أَسباب لتحقق هذا النبأ. فنفوسهم لا تطمئن ما لم يروا في الدنيا المادية آثارًا ظاهرة شاهدة على صدق تلك الأنباء، وإذا ظهرت الأمارات الظاهرة أيقنوا بتحقّق النبوءة؛ لذا لما أنبأ الله تعالى بغلبة المسلمين حتى إنهم سيطردون المشركين من مكة قال الكافرون في حيرة: كيف يدّعي هؤلاء القوم بغلبتهم على المشركين بحيث يطردونهم من مكة نفسها، مع أن عددهم لم يتجاوز الأربعين، والعدو يؤذيهم ويضطهدهم حتى يلقيهم على

الحجارة الحامية ويجرّهم في الشوارع، ونحن لا نرى في الدنيا أية آثار لغلبتهم؟ فجاءت سورة "النازعات" ردًّا على تساؤلهم، حيث بيّن الله تعالى فيها تفاصيل "المفاز" الذي وعد به المتقين في سورة "النبأ" بقوله ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾، ففصّل كيفية انتصار المسلمين وازدهارهم والآثار التي تقنع هؤلاء المتسائلين حول غلبة المسلمين. لا شك أن المسلمين سينالون في الآخرة ما وُعدوا من النعم، إلا أن الله تعالى قد أكد هنا أنه سيُهيئ أسبابًا لغلبتهم في الدنيا، لتكون دليلاً على صدق ما وعدهم به في الآخرة. وقد بين الله تعالى هنا تفاصيل تلك الفترة من رقي المسلمين، كما أنبأ عن نشوب الحروب أيضا. فكأنه تعالى يقول للكافرين: تسألون كيف تتمّ غلبة المسلمين وازدهارهم، فجوابنا أن حروبًا ستندلع وستؤدي إلى غلبتهم وازدهارهم. وبتعبير آخر، سيتوجه المسلمون، بعد إصلاح نفوسهم، إلى نفس السلاح الذي يُستخدم ضدهم اليوم. تُغيرون عليهم اليوم بالسيف لإيذائهم واضطهادهم، لكنهم يكفّون عنكم أيديهم متمسكين بأهداب الصبر عملاً بأمر الله تعالى، ولكن الله عندما يرى أنكم لا ترتدعون عن اضطهادهم سيأذن لهم برفع السيف ضد السيف ليذيقكم وبال ظلمكم. سنجعل المسلمين، بعدما تتم تربيتهم الروحانية، يصحون كما يصحو النائم من نومه، ونقول لهم تعالوا هُبُّوا الآن وقارِعوا السيف بالسيف. إنهم الآن كالأسد النائم الذي يمكن أن تعلوه الفأرة، ولكنه حين يفيق من سباته فلن يقدر على مواجهته المحارب المدجج بالسلاح. إذًا، فإن الله تعالى يخبر في هذه السورة أن المسلمين سيظلّون بأمرٍ منا رُقودًا أول الأمر ليصبّ عليهم الكافرون ما شاءوا من الظلم ولن يرفعوا أي شكوى على ظلمهم، حتى إذا أيقن الكافرون أن المسلمين ليسوا إلا تماثيل من الطين وأنهم قادرون على إيذائهم كيفما شاءوا، أيقظنا هذا الأسد النائم، فيهبّ من نومه مجلجلاً، ولن يستطيع أحد مواجهته. عندما يهبّ أسدنا هذا من رقاده بأمر منا ستبدأ سلسلة من حروب طويلة تهيئ الأسباب المادية لغلبة المسلمين وازدهارهم. لا شك أن هذا الأمر أيضًا نبأ غيبي، ولكن المرء إذا علِم كيفيةَ تحقُّقِ نبأ ما بشكل مادي اطمأن إلى حد ما وقال في نفسه: إذا تحقق هذا الأمر تحققت النبوءة أيضًا. كان المنكر يظن أن

القرآن ربما يدعي في سورة "النبأ" أن الملائكة سينـــزلون ويُكرهون الناس على الإسلام، ولكن الله تعالى عندما أخبر بهذه الأسباب المادية لغلبة الإسلام كان ذلك أدعى لأن تقتنع النفوس الراغبة في رؤية الأسباب المادية وتطمئن.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿٢﴾

شرح الكلمات:

النازعات: نزَع الشيءَ من مكانه نَزْعًا: قلَعه؛ ونزَع الأميرُ العاملَ عن عمله: عزَله؛ ونزَع بالسهم: رمى به؛ ونزَع في القوس: مَدَّها أي جذَب وَتَرَها؛ ونزَع عن القوس: رمى عنها؛ نزَع الدلوَ: جذَبها واستقى بها؛ ونزَع المريضُ: أشرفَ على الموت؛ ونزَع عن الأمر نُزوعًا: كَفَّ وانتهى عنه؛ ونزَع الولد أباه، أو إلى أبيه نزوعًا: أشبَهَ أباه؛ ونزَع إلى الشيء نزاعًا: ذهب إليه؛ ونزَع بفلان إلى كذا: دعاه إليه؛ ونزَع الرجل إلى أهله نَزاعةً ونِزاعًا ونُزوعًا: اشتاق. (الأقرب)

غَرْقًا: وليكن معلومًا أننا نستعمل "غَرْق" في اللغة الأردية بمعنى الموت في الماء، ولكن الغَرْق لا يُستعمل في العربية بمعنى الغَرَق؛ حيث يقال: غَرَقَ غَرَقًا. والحق أن لفظ ﴿غَرْقًا﴾ الوارد هنا هو مصدرُ (أغرَقَ)، وكأن الغَرْق هنا بمعنى الإغراق، ونظير هذا الاستعمال قولُه تعالى عن الحجارة: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾(البقرة:٧٥)، والجميع متفقون على أن خشية الله هنا بمعنى إخشاء الله.

وأغرَقَه في الماء: غرَّقه؛ وأغرقَ الكأسَ: ملأها؛ وأغرقَ النازعُ في القوس: استوفى مَدَّها، يقال أغرقَ النَبْلَ: إذا بلَغ به غايةَ المدّ في القوس؛ وأغرقَ فلان في الشيء: بالغَ فيه وأطنبَ؛ وأغرقَ الناس فلانا: كَثُروا عليه فغلبوه. (الأقرب)

فقوله تعالى ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ يعني:

١- الكائنات التي تقلع الشيءَ من جذره قلعًا.

٢- أو الفئات التي تتقن أعمالها إلى أقصى حد الإتقان.

٣- أو الفئات التي تعزل حاكمها وتبلغ القمة في تدابيـــرها وخططها.
٤- أو فئات الرماة التي تمدّ النبل بقوة حتى تبلغ به غايةَ المدّ في القوس.
٥- أو الفئات التي تجذب الدلو جذبًا لتسقي الناس.
٦- أو الجماعات التي تتجنب أمورًا معينة كل التجنب.
٧- أو الجماعات التي تشبه آباءها، الماديين أو الروحانيين، غاية الشبه.
٨- أو الجماعات التي في قلوبها رغبة عارمة لتحقيق أهدافها.
٩- أو الجماعات التي تدعو الناس إلى هدفها بحماس شديد.

التفسير: اعلم أن الواو في قوله تعالى ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ للقَسَم، أما الواو في الآيات التي تلتْها فهي للعطف. يقول الله تعالى نُقسم بالنازعاتِ غَرْقًا.

هناك ثلاثة حروف للقَسم في اللغة العربية، هي: الواو والباء والتاء؛ وحرفُ (الواو) هو أكثرها استعمالا، ولكن (الباء) هو الحرف الأصلي للقسم. ويظهر (الباء) مع فعل القسم فيقولون: أُقسم بالله، ولكن لا يقولون أبدا: أُقسم تالله أو أُقسم والله؛ وهذا يكشف أن الحرف الأصلي للقسم هو (الباء)، غير أنهم يستخدمون (الواو) و(التاء) أحيانًا، وكأن الواو والتاء تابعتان للباء في القَسم. إن جميع الأقسام – التي وردت في القرآن الكريم بمعنى الإدلاء بالشهادة – تبدأ بالواو لا بالتاء ولا الباء، ويمكن أن نستنتج من ذلك أن الواو أنسب للشهادة التي يستشهد فيها الأعلى بمن دونه، أي يستشهد فيها الله بخَلْقه، حيث يقول الله تعالى هنا: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾، و لم يقل: "تَالنّازعاتِ غَرْقًا".

فلسفة أقسام القرآن:

رغم أن هذا ليس مجالَ هذا البحث، إذ كان مكانه الطبيعي تلك السور الكثيرة السابقة التي قد جاء فيها القَسم، ولكن حيث إننا ننشر تفسير هذه السور الأخيرة من القرآن قبل تلك السور، فنورد هذا البحث هنا، مثلما فعلنا ببحث الحروف المقطعة في سورة يونس التي نشرنا تفسيرها قبل تفسير سورة البقرة. إذًا، فلا بدّ هنا من مناقشة أسباب قَسم الله تعالى ببعض الأشياء في القرآن الكريم، ونرى ما إذا كانت هذه الأقسام من قِبل الله تعالى أم من قِبل العباد؟

إن التدبر القليل يكشف لنا أن هذه الأقسام ليست من العباد، لأن الموضوع المذكور بعدها لا يمكن أن يكون من قبل العباد، حيث يقول الله تعالى بعدها مثلاً: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾؛ وهذه نبوءة، والإنسان يجهل الغيب فلا يستطيع أن يدلي بالنبوءات، وإنما يتنبأ مَن يعلم الغيب. فثبت أن هذه الأيمان من عند الله تعالى.

وهنا ينشأ سؤال: ما الحكمة في هذه الأقسام الواردة من قِبل الله تعالى في آيات قرآنية عديدة؟ إن الإنسان يحلف بالله تعالى لأنه تعالى قاهر فوق العباد، ولا قِبل لهم به؛ فكأنه يقدّم اللهَ تعالى شاهدًا على صدق دعواه ويقول لو كنت كاذبا في حلفي بالله فإنه تعالى قادر على إهلاكي، وإن لم يفعل فاعلموا أنه يشهد على صدقي.

ولكن ليس فوق الله تعالى أحد حتى يجعله شاهدًا على صدق ما يعلن، وهنا ينشأ السؤال التالي: ما دام كل شيء هو أدنى من الله تعالى شأنًا وقدرة، فما الفائدة في قسم الله تعالى في القرآن بمختلف الأشياء؟ إذا كان الإنسان يحلف بمن فوقه، فلماذا يقسم الله تعالى بهذه الأشياء مع أنه فوق الجميع وليس فوقه أحد؟

معنى القَسم

لقد سبق أن بينتُ أن مفهوم الحلف هو أن الحالف يقصد بحلفه أن الله تعالى يكره الكذب ويأمر بالصدق، فلو كذَب في قوله خالفَ أَمْرَ الله تعالى، وأثار غضبه عليه؛ فلذا يُقسم بالله تعالى إنه صادق فيما يقول، وإذا كان كاذبًا فليعاقبْه الله على كذبه وعصيانه، لأنه أوّلاً قد خالف أمر الله تعالى بقول الصدق، فلجأ إلى الكذب بدلاً من الصدق، وثانيًا ارتكب ذنبًا زائدًا بأن جعل الله شهيدًا على أنه صادق فيما يقول. إذًا، فإنه عصى الله تعالى الذي أمرنا بقول الحق من ناحية، ومن ناحية أخرى لم يكذب فقط بل حاول أن يجعل الله تعالى شريكا في كذبه إذ قال إنه تعالى شاهِد على صدق ما يقول. والظاهر أن المرء لو ارتكب ذنبًا لم تثُرْ غيرة الله عليه كما تثور عندما يرتكب ذنبًا ثم يريد أن يجعل الله شريكًا في ذنبه أيضا. لا جرم أن غيرة الله تثور ضد كل ذنب، بيد أن هنالك فرقًا بين الكاذب العادي وبين الكاذب الذي يجعل الله شهيدًا على ما يقول؛ فمثله كمن يشرب الخمر وإذا لامه أحد أشار

إلى أحد الأتقياء الذي يحترمه الناس وقال: إنه أيضًا يشرب الخمر؛ فيزداد غضب الناس عليه وتوبيخهم له حيث يقولون: تشرب الخمر وتضم شخصًا تقيًّا إلى إثمك؟! كذلك يسخط الله على كل إثم، ولكن المرء إذا حلف كذبًا أثار غضبه أكثر؛ إذ حاول أن يضم الله تعالى إلى كذبه وافترائه.

فالحق أن قَسم المرء يعني إشراكه الله تعالى في فعله. فإذا كان ما يحلف به أمرًا حقًّا، فلا حرج في قَسمه، كأن يقول: أحلف بالله أنني أصلّي، فإذا كان يصلّي بالفعل، فلن تثور غيرة الله عليه، لأن الله تعالى يعلم أنه صادق فيما يقول؛ ولكن إذا لم يكن يصلي، ومع ذلك حلف بالله أنه يصلي، فإنه قد أراد في الواقع أن يجعل الله تعالى شريكًا في كذبه وخداعه؛ وبالتالي أثار عليه غيرة الله تعالى.

إذًا، فإن هدف الحالف طَمْأنةَ السامعين في الواقع، لأنه عندما يحلف بالله على فعله فإن الله تعالى لا يشهد بلسانه على صدقه، ولم يحدث قط أن الله تعالى قال للناس إن عبدي هذا يصدقكم القول، ومع ذلك فإن الحالف يدرك أنه لو حلف كذبا فلا بد أن يبطش الله به، كما يدرك السامع أيضًا بأنه لو كان كاذبًا في يمينه وجعل الله شريكًا في كذبه، فلن يتركه الله تعالى بدون عقاب.

إذًا، فالحلف له هدفان؛ أولهما أن الحالف يُطَمْئن الآخرين بأنه موقن بصدقه لدرجة أنه يُشهد الله على ما يقول، وكأنه يقول إن علمي وعلم الله متوافقان، وأن الله يعلم ما أعلم بهذه القضية، وأنه لم يقل شيئا خلاف الحقيقة. وثانيهما: أن السامع يُطْمَئن بأن الحالف ما دام قد جعل الله شريكًا في قوله فلا داعي للقلق لأن الله تعالى سيتولى عقابه إذا كان كاذبًا فيما قال.

باختصار، هذه هي الحكمة في القَسم، بأن المرء من ناحية يُبدي اتحادًا مع الله تعالى، بمعنى أنه يقول إن علمه وعلم الله تعالى متوافقان بهذا الصدد، وإن الله يعلم ما يعلم هو في تلك القضية. مثلاً عندما يقول الحالف أُقسِم بالله تعالى أن زيدًا قد ذهب إلى لاهور، فإنه يعني أن عِلمه وعلم الله – الذي هو عليم وخبير بكل ما في السماوات والأرض والذي لا تخفى عليه خافية – متوافقان بهذا الشأن، ومن ناحية

أخرى يطمئن السامع بأنه لو كان كاذبا فيما يقول فإن الله تعالى بنفسه سيبطش به، وإذا بطش به نعلم أنه كان يفتري فيما يقول.

إذًا، للقَسم هدفان: أحدهما أن الحالف يجمع علمه مع علم الله تعالى، أي يقول إن علمي وعلمه متوافقان بهذه القضية؛ والثاني أنه يتحدى عقاب الله تعالى إذ يعني أنه إذا كان كاذبًا فيما يقول باسمه تعالى فإنه مستعد لبطش الله وعذابه.

بيد أن الله تعالى ليس فوقه حاكم ومن المستحيل أن يعاقبه أحد؛ فيطرح هنا السؤال التالي نفسه: ما الفائدة في قَسم الله ببعض الأشياء؟ فإن الإنسان عندما يحلف بالله على شيء فيعني أنه يجعل الله تعالى شريكًا في فعله، وأنه تعالى سيعاقبه إذا كاذبًا في حلفه، أما الله فلا يمكن أن يحاسبه أحد. والأمر الثاني الذي يستهدفه الحالف بالله تعالى أنه يعلن أن علمه وعلم الله تعالى متوافقان في تلك القضية، وهذا الهدف أيضًا لا يوجد في قسم الله بأشياء أخرى، لأن الله غالب على الجميع في علمه حتمًا، فلا فائدة في أن يدعم قوله باعتبار علمه متوافقا مع علم الآخرين، وبالتالي من المحال أن يشهد الله بعلم المخلوق على صحة علمه ﷻ؛ فما الفائدة من أن يُقسم الله تعالى بالمخلوقات التي لا حول لها ولا قوة أمامه تعالى، ولا يساوي علمها أمام علمه سبحانه شيئًا؟ فيمكن للطالب مثلاً أن يقول لزملائه إن ما أقوله هو الحق، وبوسعكم أن تسألوا أستاذنا في ذلك، ولكن الأستاذ لا يقول أبدًا: إن ما أقوله صحيح، فاذهبوا إلى تلميذي فلان لتتأكدوا منه. فأعداء القرآن يعترضون عليه قائلين: إن مثل هذه الأقسام عبثية ووجودها في كلام الله تعالى يتعارض مع العقل.

مفهوم القَسَم في اللغة العربية

قبل الرد على اعتراضهم لا بد من معرفة مفهوم القَسم في العربية، لأن القرآن الكريم قد نزل بها، وإذا فهمنا معنى القَسم فهمنا الحكمة في قسم الله بالأشياء الأخرى.

هناك ثلاث كلمات تُستخدم بمفهوم القَسم في العربية: الحلف واليمين والقَسم.

والقَسم مفهوم لنا سلفًا.

أما الحلف فيقال: حلَف بالله حلفًا: أَقسمَ به (الأقرب). وهذا المعنى للحلف لا يزيدنا معرفة، بل يشير إلى المفهوم الشائع للقَسم؛ ولذا لا بد لنا من تحرّي مفهوم الحلف نظرًا إلى اشتقاقيْه الصغير والكبير، حتى نعلم المفاهيم المنطوية في لفظ الحلف.

فاعلم أن جميع مشتقات الحلف، سواء مِن الاشتقاق الكبير أو الاشتقاق الصغير، تدلّ على مفهوم القَسم إلا (الحَلْفاء)، فهي نبتٌ أطرافُه محدّدة ينبت في مغايض الماء. (الأقرب)

أما لفظ (الحليف) فهو: كل شيء لزِم شيئًا فلم يفارقه؛ والحديدُ من كل شيء (الأقرب). فحروف (حلف) تنطوي على معنيين، أولهما لزوم الشيء شيئًا، والثاني كون الشيء حادًّا.

والآن نتوجه إلى المشتقّات الأخرى لحروف (حلف)، وهي خمسة: حفل، لحف، لفح، فحل، فلح.

ولنأخذ (حفل) أولاً. ومشتقات (حفل) كلها تدل على الاجتماع والكثرة، فالحَفْلة تعني الجلسة والاجتماع حيث يجلس الناس بعضهم مع بعض. وهذا هو مفهوم (الحليف) إذ يعني لزوم الشيء شيئا بحيث لا يفارقه.

والحفل: الاجتماع، يقال حفَل القوم: احتشدوا واجتمعوا (الأقرب).

ومن معاني الحفل إبلاغ الأمر أقصى حد، يقال احتفل فيه: بالغَ، واحتفل بالأمر: أحسنَ القيام به (الأقرب). وهذا المفهوم يدل على معنى الملازمة وعدم المفارقة، لأن المرء لا يبالغ في عمل إلا إذا لازمه و لم يفارقه. كذلك لا يحسن المرء القيامَ بشيء إلا إذا واظب عليه وثابر؛ لأن من الناس من يبدأ العمل ثم يتركه ولا يكمله لافتقاره إلى المثابرة، أما الشخص الناجح فيثابر على عمله وكأنه يلازمه ولا يفارقه. فثبت أن هذا المعنى أيضا يدل على ملازمة الشيء شيئًا.

أما (لحف) فيدل على لفّ الشيء والادّثار به والتغطي به، ومنه لفظ (اللحاف) المستعمل في لغتنا الأردية أيضا، حيث نلفّه حولنا عند النوم فيغطي الجسم طول الليل.

أما (لفح)، فيحتوي على معنى اللمس والمسّ، يقال لفَحه بالسيف: ضرَبه به (الأقرب). وهذا المعنى للفح ينطوي على المعنى الثاني أيضًا أعني إلحاق الضرر. وكذلك يقال: لفَحتْه النار: أحرقتْه، وفي "اللسان": أصابتْ وجهَه. واللُفّاح نبتٌ يُشَمّ. (الأقرب). إذًا، فاللَّفْحُ يدل على اللمس والمساس وإلحاق الضرر.

أما (فحل) فالفحل: الذَكَر من كل حيوان (الأقرب). وهذا المعنى أيضا يتضمن معنى اللمس، لأنه يلتصق بأنثاه عند السفاد. ومن معاني الفحل الراوي (الأقرب)، والراوي أيضًا يلازم من ينقل عنه الروايات. والفَحْلة من النساء: السليطة (الأقرب).. أي التي إذا تكلمتَ معها صَعُبَ عليك التخلص منها. وهذا المعنى يوجد في لغتنا (الأردو) أيضا، حيث نقول: هلا انتهيتَ عن الكلام وتركتني؟ إذًا فهذه الكلمة أيضا تدل على معنى الملازمة وإلحاق الضرر.

أما (فلح) فمنها الفَلاح: أي الفوز والنجاح. هذا المعنى أيضًا ينطوي على مفهوم ملازمة الشيء، لأن الذي ينال بُغيته لا ينفصل عنها، ولا يدَعها تقع في أيدي الآخرين. من معاني (الفلح) شقُّ الشيء، ومنه الفلاّح الذي يشقّ الأرض بالمحراث شقًّا. والفلّاح يعني أيضا المِجْداف يحرّك به الملّاح السفينة. وهنا أيضًا نجد معنى الشقّ حيث يشقّ الماء ويدفع السفينة (الأقرب).

تتلخص هذه المعاني كلها بما يلي:

١- ملازمة الشيء الشيءَ، أو اتحاد الشيء بالشيء، فالحليف من يلازم صاحبه ولا يفارقه، و(الحفلة) هو الاجتماع والاتحاد، و(اللحاف) ما نلتفّ ونتغطّى به عند النوم، و(اللفح) مسٌّ من شعلة نار، و(اللُفّاح) نبتٌ يُشمّ، أي يُقرَّب من الأنف، و(الفحل) الذَّكَرُ يلتصق بأنثاه، و(الفحل) أيضا الراوي الذي يلازم صاحبه لأخذ الروايات عنه، و(الفحلة) المرأة السليطة التي لا تبرح تلاحقك بحديثها القاسي، و(الفلاح) النجاح ونيل المرء بُغيته، فهذه المفاهيم كلها تدل على الجمع واللصق والربط. بيد أن هنالك معنى آخر في هذه الكلمات المشتقّة من الحلف وهو الإحراق بالنار والضربُ بالسيف وشقُّ الأرض أو شقُّ الماء، وهذه كلها معاني الإيذاء والإحراق والضرب.

وهذان المعنيان لحروف (ح ل ف) كلاهما موجود في المفهوم العام للقَسم. إذًا، كلما اجتمعت حروف (ح ل ف) في العربية دلت دائما على معنيين؛ أولهما إلصاق الشيء بالشيء، وثانيهما شق الشيء وإحراقه وإلحاق الضرر به. وعليه فالحلف يعني اتحاد الواحد بالآخر بحيث يُخاف على الفرقة والمعارضة بينهما. وهذا هو الغرض من الحلف، فإن الحالف يجعل مَن يحلف به شاهدًا له ونصيرًا على ما يقول، بشرط أنه لو كان كاذبًا فإن صاحبه هذا سيعاقبه ويشهد على كذبه. إذًا، فحلف العبد بالله يعني، من ناحية، أنه يضم الله تعالى إلى نفسه ويقول إن الله معي وأن علمه يصدّق ما أقول، ومن ناحية أخرى يعني أنه لو كان كاذبًا فلا بد أن يُشَقّ ويُحرَق ويُباد من قبل الله تعالى.

هذا فيما يتعلق بكلمة الحلف.

والكلمة الثانية هي القَسَم، يقال أَقسَمَ بالله وأُقسِمُ بالله. والثلاثي المجرد له هو قَسَمَ، يقال قَسَم الرجلُ المالَ جزّأه أو فرَزه أجزاءً؛ وقسَم الدهرُ القومَ: فرَّقهم؛ وقسَم فلان أمره: قدّره ونظَر فيه كيف يفعل، أو لم يَدْرِ ما يصنع فيه. (الأقرب)

وحيث إن قولهم أقسَمَ بالله يعني حلَف به، وليس له معنى آخر في العربية، فعلينا أن نعرف حقيقة معنى الإقْسام على ضوء ثلاثيّه المجرد. وحيث إنّ فعله من ثلاثيه المجرد، أي "قَسَمَ"، هو فعلٌ متعدٍّ، فيُعتبر "أقسَمَ" معاكسًا لمعنى "قَسَمَ"، لأن السلب أحد خصائص "الإفعال"✪، بمعنى أنه إذا كان قولهم "قَسَمَ الشيءَ" يعني فرَّقه وجزَّأه، فإن جملة "أقسمَ الشيءَ" سيعني عكس ذلك أي أزال التجزئة والفرقة من شيء، أي جمعه. إذًا، فالإقْسام يعني الجمع، وهذا هو أحد معاني الحلف أيضًا.

ويقال: قَسَمَ فلان أمره، أي لم يَدْرِ ما يصنع فيه، وعليه فيكون المراد من "أقسَمَ فلان أمره": أزالَ حيرته وتردُّده. وهذا المعنى أيضًا يتضمنه لفظ الحلف، لأن الحالف

✪ ورد في مقدمة قاموس "المنجد" تحت عنوان "مزيدات الأفعال"، وتحت "أَفْعَلَ" في معرض بيان خصائص "الإفعال" ما يلي: "٩- السلب: نحو: أشفى المريضُ: زال شفاؤه." (المترجم)

يحاول إزالةَ تردُّد الناس وجَعْلَهم يوقنون بأن ما يقوله هو الحقّ وأن الله شاهد على صدق ما يقول.

إذًا، لو اعتبرنا الهمزة في الإقسام تفيد السلب فصار معنى الإقسام بمعنى الحلف تمامًا، أي كما أن الحلف يدل على ضم الشيء وجمعه، كذلك يعني الإقسام جمع أجزاء الشيء وإزالة فرقته. وكما أن الحلف يفيد إزالة التردد، كذلك يفيد الإقسام الغرض نفسه.

واللفظ الثالث للقَسم في العربية هو اليمين، ولكنه لا يتضمن إشارة مباشرة إلى القَسم، بل يُستخدم بمعنى القسم لأن العرب "إذا تحالفوا ضرب كلُّ امرئ منهم يمينه على يمين صاحبه"، ومن هنا استُخدم لفظ اليمين للقَسم أيضا (اللسان). وكأنه يشير إلى وسيلة القَسم، وليس له كلمات معينة في اللغة.

إذًا، فكلمتا الحلف والقَسم فقط تدلان على معنى القسم في العربية، وكلتاهما، كما بيّنتُ من قبل، تدلان على الاتحاد وإزالة الشك والتردد، وإنزال العقوبة وقطع العلاقة. بمعنى أن الإنسان يقصد بالقَسم اتحاده مع الله تعالى من ناحية، أعني أنه يقول إن علمي وعلم الله متوافقان في هذه القضية، ومن ناحية أخرى يعلن أنه لو كان كاذبًا فيما يقول فليعاقبْه الله تعالى. إذًا، فغرضُ القَسم عند العرب إعلان الحالف اتحاده مع الآخر ليكون هذا دليلا على صدقه؛ ومطالبتُه بالعذاب والهلاك في حالة كونه كاذبًا في ذلك.

والآن نرى ما إذا كان قَسم الله تعالى بهذا المعنى جائزا أم لا، وإذا أقسم الله تعالى بشيء فهل ينطبق هذا المعنى أم لا؟

نحن نعلم أن الله تعالى إذا قال شيئًا فلا يسع الإنسان إنكاره؛ لأننا نؤمن أن الله موجود، وإذا قال تعالى أن الأمر الفلاني هكذا فليس لنا سوى القبول، ولا يسعنا إنكاره بحال. بيد أن هنالك أمرًا لا يفهمه الناس فيسبب حجر عثرة لهم، وهو أننا لا نرى الله تعالى بأعيننا لأنه وراء الوراء، ولم يحدث قطّ أن السماء انشقت وظهر الله منها، وقال: أنا الذي قلت كذا وكذا لمحمد ولموسى أو لعيسى أو لزرادشت أو لكرشنا عليهم السلام. عندما بُعث نوح عليه السلام قال قد أخبرني الله بكذا، وعندما

جاء إبراهيم عليه السلام، قال: هذا ما أمرني الله به، ولما ظهر موسى عليه السلام، قال: هكذا قال الله لي، وعندما بُعث عيسى عليه السلام قال هذا ما أمرني الله به، وحينما جاء محمد ﷺ قال إن الله قد قال لي كذا وكذا؛ ولكن أقوامهم لم يرَوا الله تعالى بأعينهم، وإنما كان الإنسان هو المتكلم معهم وليس الله تعالى. وحيث إن الله تعالى لا يُرى، فإن وحيه الذي أنـــزله يظل بحاجة إلى دليل على أنه نزل من عنده تعالى، وإنْ كان ما يقوله الله تعالى لا يجوز إنكاره.

إذًا، فلا شك أن الله تعالى ليس بحاجة إلى دليل لإقناع الناس بما يقول، ولكن كلامه يظل بحاجة إلى دليل يثبت أنه منه سبحانه؛ لأن الناس لا يسمعون الوحي من فمه تعالى مباشرة، وإنما يسمعونه من فم البشر مثلهم. فثبت أن الذين يقولون: ما الداعي لأن يُقسم الله تعالى بأشياء أخرى إنما هم مخدوعون؛ ذلك لأن الناس وإن صدّقوا أن متلقّي الوحي موقن أن وحيه من عند الله تعالى، إلا أن يقينه لا يجعل كل من يسمعه يوقن مثله. فمثلاً، إني أؤمن بالقرآن الكريم إيمانا كاملا، وإذا قدّم القرآن أمامي أمرًا ولو بدون قسمٍ، فسأوقن أنه حقّ وأصدّق بما يقول، ولكن الذي لا يؤمن بالقرآن هو بحاجة إلى دليل على صدقه؛ إذ كيف يؤمن بدون دليل بأن ما يُقال له هو من عنده سبحانه وليس من افتراء بشر؟ ولولا هذا الدليل في وحي الله تعالى لكان أكبر أضراره أنه لم يبق هناك ما يميز بين النبي الصادق والكاذب ولم يعرف الناس ما إذا كان الذي يتكلم معهم يتلقى وحي الله تعالى فعلا، أم أنه يقدّم لهم مفترياته.

إذًا، فمثل هذا الدليل ضروري ليس لأن بعض الطبائع البشرية لا تؤمن إلا إذا اطمأنت إلى أن صاحب الوحي موقن بكون وحيه من الله تعالى فحسب، بل أيضًا ليوقنوا أنه فعلاً وحي الله تعالى، وأن صاحبهم لا يفتري على الله تعالى. أما إذا عرض عليهم وحي الله بغير دليل، وإذا طلبوا منه الدليل على صدقه قال: إن وحي الله تعالى ليس بحاجة إلى برهان، ألا يكفيكم أني أقول لكم إن الله تعالى هو الذي قد أنزله، فقد يخرج عليهم كذاب ويقول: إن الله تعالى قد أوحى إليّ كذا وكذا، وعندها يحتار الناس، ولن يعرفوا الصادق من الكاذب، لأن كل واحد منهما يدعي

أن الله تعالى قد بعثه؛ وحيث إن هذا الوضع لا يميز الصادق من الكاذب، فقد فرض الله على نفسه أن يقدم البراهين الدالة على صدق وحيه، قمعًا لفتنة المتنبئين الكاذبين وكشف افترائهم أمام الناس. فلو أن إبراهيم عليه السلام قال للناس ما دمت أقول لكم إن الله تعالى قد قال لي كذا فلماذا لا تؤمنون، ولو قال موسى إن الله تعالى قد كلمني بكذا وكذا فلماذا تسألون الدليل على ذلك، ولو قال عيسى إن ما أقول لكم قد أوحاه الله إليّ، فما الداعي إلى التدليل على ذلك، ولو اتبع زرداشت وكرشنا ورام تشندر الأسلوب ذاته، لخاف الناس خوفًا شديدا ولصدَّقوا كلَّ مدّعٍ في عصرهم دون أن يطالبوه بأي برهان، وبالتالي لانتشر الكذب واشتبه الحق لأن المتنبئين الكذابين يظهرون في كل عصر. فقمعًا لهذه الفتنة فرض الله على نفسه تقديم الأدلة على صدق الوحي الذي يُنـــزله على رسله، لكي تُقدَّم لكل سائل فيقال له: هذه هي البراهين الدالة على أنه وحي الله تعالى وليس افتراء بشر. فلما كان التمييز بين الصادق والكاذب ضروريًّا، فلا يتنافى مع عظمة الله تعالى أن يقدم دليلا يؤكد أن الكلام المنسوب إليه هو وحيه حقا، بل هذا هو مقتضى رحمته تعالى. إن المبعوث الرباني إذا لم يستطع تقديم دليل على أن ما ينسبه إلى الله هو وحيه تعالى فعلاً، بل إذا طولب بدليل على صدق دعواه اعتبره إساءة إلى الله تعالى، لعمّت الفوضى، ولقام كل يوم مدّعٍ جديد ونسب إليه تعالى مفترياته؛ ولذا فقد فرض الله على نفسه تقديم شهادات على صدق وحيه، وإلا عانى ضعفاء الناس عناءً كبيرًا. فثبت أن تقديم الله تعالى مثل هذه الشهادات والبراهين لا يتنافى مع عظمته، بل هذا ضروري جدًّا لبيان صدق كلامه لسببين، أولهما: أن يعرف الناس أنه كلام الله تعالى حقًّا، وثانيهما: ألا يتجاسر كذاب على أن ينسب أباطيله إلى الله تعالى. وإذا ثبت هذا، فلا بد لنا من التسليم بأن أي دليل مشابه للحلف سيُعتبر – يقينًا – برهانًا عظيما على صدق وحي الله تعالى، وأنه تعالى إذا قدم دليلا كهذا على صدق وحيه لم يقدح هذا في عظمته، بل هو ضروري جدًّا.

وبعد أن برهنّا على أنه لا بد لله تعالى من تقديم برهان على صدق وحيه، ينشأ سؤال: ما هو أكبر برهان لإثبات صدق شيء؟

فاعلم أن الحلف يُعتبر في العالم أكبر دليل على صحة أي أمر دونما شك، بل بعد الحلف يصدر القرار النهائي؛ ذلك لأن بعض الطبائع لا تطمئن بأي شيء غير الحلف. إنهم يكونون متأكدين من صلاح المدّعي وصدقه، ولكن لا تزال قلوبهم في مرية، يقولون: قد يكون الادعاء بنـــزول الملائكة من السماء بوحي الله تعالى أو تكليمه تعالى مع البشر مشافهةً مجردَّ خرافة، ولكن إذا حلف المدعي على ذلك اطمأنوا وعرفوا أنه ليس مجرد خرافة، بل إن المشاهدة تدعمه؛ إذ لو لم يمر هذا الإنسان بهذه التجربة لما تجاسر على الحلف.

فثبت من هنا أن آخر ما يزيل الشبهة هو الحلف، وأن الله تعالى قد اعتبر الحلف برهانًا قطعيًّا لدَرْءِ الشبهات، فلو لم يقدم الله تعالى في وحيه هذا الدليل على صدقه – مع أنه أولى بتقديم الأدلة – فقد ترك أمرًا نافعا وضروريا جدا، وبالتالي دفَع شريحة كبيرة من الناس الذين لا يطمئنون بغير الحلف إلى عدم الاطمئنان.

وهنا ينشأ سؤال آخر وهو: حتى لو نُسب الحلف إلى الله تعالى في الوحي، إلا أن الحالف يكون في كل حال ذلك الإنسان الذي يعرض الوحي على الناس، فكيف يُعتبر الحلف في هذه الحالة دليلا على صدق ذلك الوحي؟ والجواب: لا شك أن الحلف سيكون منسوبًا إلى الله تعالى في ذلك الكلام، ويكون الحالف هو الإنسان الذي يعرض هذا الكلام على الناس، ولكن علينا أن نرى من ذا الذي يقع عليه وبال الحلف إذا كان كاذبا فيه؟ لا شك أنه يقع على هذا الحالف الذي ينسب هذا القَسَم لله تعالى. مثلاً، قال زيد إن الله تعالى قد أوحى إلي كذا وكذا، وإنه تعالى يحلف على صدق هذا الأمر، فلو كان زيد كاذبًا فيما قال فمَن هو المسؤول عن هذا الحلف الكاذب؟ لا شك أن زيدًا هو المسؤول حيث افترى على الله تعالى وخدع الناس بالحلف الكاذب، وما دام مسؤولاً عن ذلك، فلا بد أن يبطش الله به، ليكشف للناس أنه كذاب افترى على الله كذبا، فوقع فريسة لعذابه ﷻ. إذًا، فلا بد لدرء الشكوك والشبهات من القلوب وملئها باليقين من طريق يؤدي إلى اطمئنانهم، ولذلك قد أقسمَ الله تعالى في القرآن الكريم. ولا تخلو هذه الأقسام من أحد الأمرين؛ إما أن يقول المرء إن الله تعالى هو الذي حلف بها فعلاً وليس أحد

من البشر، وبالتالي سيؤمن بصدق هذا الوحي؛ أو يقول لم يحلف الله تعالى بها، إنما حلف بها محمد (ﷺ) من عند نفسه، وفي هذه الحالة سيوقن أن محمدًا (ﷺ) إذا كان كاذبًا في حلفه – والعياذ بالله – فلا بد أن يعاقبه الله تعالى. إذًا، ففي كلتا الحالتين سيتحقق الغرض من هذا الدليل، فإذا كان المرء مؤمنًا بأن القرآن وحي الله تعالى فهو ليس بحاجة إلى حلف أو دليل على كون القرآن كلام الله لأنه يوقن سلفًا أنه تعالى هو الذي حلف بهذه الأقسام كلها، أما إذا كان يظن أنها ليست من عند الله تعالى بل هي من افتراء محمد – والعياذ بالله – فسيطمئن أيضًا لأنه يقول ما دام محمد قد حلف كذبًا، فلا بد أن يبطش الله به ويعاقبه، وإن نتائج هذه الأقسام بنفسها ستكشف عليه حقيقة الأمر.

إذًا، فالحلف دليل عظيم على صدق وحي الله تعالى. لا شك أن الحلف في الوحي يُنسَب إلى الله تعالى، ولكن لما كان الحالف هو الإنسان الذي يقول إنه وحي الله تعالى، فلا بد أن يقع عليه وبال الحلف الكاذب، لتنكشف الحقيقة على الناس ويعرفوا الصادق من الكاذب.

ثم إن الحلف الحقيقي ليس إلا ما يحقق غرضه، وليس غرض الحلف إلا تأكيد الحالف على اتفاقه مع الطرف الآخر وتقديمه إياه شاهدا على صدقه، وبهذا المعنى فإن حلف الله تعالى بالمخلوقات جائز، لأن من أغراض الحلف بالله تأكيدَ الحالف على أن الله يعلم أن الأمر هو كما يعلمه ويقوله الحالف، حيث إن أحدا إذا حلف على موقفه بشيء آخر، فيعني أن هذا الشيء يشهد على صدق ما قال، وشهادة ذلك الشيء الآخر تحسم الأمر فيما إذا كان الحالف صادقا أم كاذبا. وحيث إن الله تعالى خافٍ عن الأعين، فإذا حلف ﷻ بشيء وقدّمه كشاهد على ما قاله في وحيه فإن شهادة هذا الشيء ستكشف الصدق من الكذب، لأن ذلك الشيء إذا شهد ثبت أن ما نُسب إلى الله تعالى هو حق، وإذا لم يشهد ثبت أن ما نُسب إليه تعالى باطل.

إذًا، فالمراد من قَسم الله بمخلوقاته أنه يقدّمها كشاهد على صدق المدّعي، فإذا شهدتْ على ما قال المدعي تبين أنه كان صادقًا في نسبة ذلك الوحي إلى الله تعالى،

وإذا لم تشهد ثبت أنه كان كاذبًا في نسبته إليه تعالى. مثلا، إذا قيل في وحي الله تعالى إن الجبال ستشهد على أمر كذا، ثم شهدتْ عليه فعلاً، ثبت أن المدعي قد نسب هذا الكلام إلى الله تعالى بالحقّ؛ إذ ليس بوسع أحد أن يجعل الجبال تشهد على أي شيء، وإنما ذلك في مقدور الله وحده. فإذا لم تشهد على ما قيل ثبت كذب الوحي المنسوب إلى الله. كذلك إذا قيل في وحي الله تعالى إن الأنهار ستشهد على أمر كذا، فعلينا أن نرى ما إذا كانت تشهد على صدقه أم لا، فإذا شهدت ثبت أن ذلك الوحي منه حقًّا، وإذا لم تشهد فثبت أنه ليس منه تعالى، وإنما افترى به المدعي على الله تعالى. ذلك لأن الإنسان ليس بقادر على أن يجعل الجبال أو الأنهار تشهد على أمر من الأمور، وإنما الله وحده القادر على أن يجعلها تشهد عليه أمام العالم.

ولو قيل كيف يمكن إثبات قول الله تعالى بشهادة المخلوق؟ فالجواب أن السؤال ليس ما إذا كان الله صادقًا أو كاذبا، بل السؤال ما إذا كان المدعي – الذي يدعي كونه ممثلا لله تعالى– صادقًا فيما ينسبه إلى الله من وحي أم كاذبا. فالدليل الذي يقدمه الله تعالى من خلال شهادة مخلوقاته سيثبت صدق المدعي فيما نسب إلى الله تعالى، وأن الوحي الذي تلقاه كان من عند الله تعالى فعلا. إذًا، فالمخلوقات لا تدل بشهادتها على صدق الله تعالى، بل على صدق المدعي الذي ينسب الوحي إليه تعالى. لنفترض أن كرشنا — مثلا – تنبّأَ في وحيه بشيء، فأكدته الأنهار أو الجبال أو الشمس أو القمر، فهذه الأشياء لا تشهد على صدق الله تعالى، وإنما تشهد على أن كرشنا لم يكذب فيما قال، بل إن الوحي الذي نسبه إلى الله كان من عنده تعالى فعلاً. أو إذا أكّدت الجبال والأنهار صِدْقَ إبراهيم عليه السلام فلا يعني ذلك أنها شهدت على صدق الله تعالى، بل يعني أنها دلّت على صدق إبراهيم فيما نسبه إلى الله من وحي. وإذا ورد في نبوءة لموسى عليه السلام – مثلاً – أن الجبال والأنهار ستشهد على كذا من الأحداث، ثم وقع كما قال، فشهادتها لا تثبت صدق الله تعالى، بل تؤكد أن موسى لم يكذب على الله تعالى، بل نسب إليه حقًّا وصدقًا. أو إذا شهدت الجبال والأنهار وغيرها من المخلوقات على صدق النبي ﷺ فلا يعني ذلك

أن الله تعالى كان بحاجة إلى شهادتها، وإنما يعني أن محمدا ﷺ كان بحاجة إلى شهادتها على صدق دعواه. فلما شهدت ثبت أن ما قاله ﷺ من أن الجبال أو الأنهار ستشهد على أمر كذا فإنه لم يقله من عنده، بل قاله بناء على وحي الله تعالى. إذًا، فالمخلوقات لم تشهد على صدق الله تعالى، بل شهدت على صدق ذلك المدعي الذي نسب إلى الله تعالى الوحي.

ورُبَّ قائل يقول: ما دام الأمر يتعلق بإثبات صدق المدعي الذي يعرض وحي الله على الناس، فيجب أن يحلف المدعي نفسه لا اللهُ تعالى.

فالجواب الأول أن المدعي أيضا يحلف على حدة، ولكن لا بد أن يوجد في وحي الله تعالى الحلف- الذي يُعتبر أكمل أنواع الأدلة عند غالبية الناس، ذلك لأن الوحي كلام كامل فلا بد من وجود شهادة داخلية فيه على كونه كلاما كاملا، وإلا لن يبقى كاملا. فإذا خلا وحي الله تعالى من الحلف، بل حلف النبي على صدق دعواه على حدة فقط، فلن يُعتدّ بحلفه، والحديث خير مثال على ذلك حيث نجد في الأحاديث أمثلة كثيرة للحلف، ولكن الناس لا يزالون يشكون في صحة الحديث. نحن لسنا هنا بصدد فيما إذا كانت شُبهتهم صحيحة أو باطلة ..فهذا بحث آخر، بيْد أنّه لا يسعنا الإنكار أنه لا يزال هناك مجال شبهةٍ من قبل هؤلاء الناس، كما أننا أيضا لا نستطيع الجزم بصحة كل حديث، أو بأن النبي ﷺ قد قاله بالكلمات نفسها. إنما الكلام اليقيني القطعي الذي نستطيع أن نحلف بأن كل لفظ منه قد نزل من عند الله تعالى، ووصلنا من الرسول ﷺ كما هو، هو القرآن الكريم وحده. حتى إن أعداء الإسلام من أمثال وليام موير (William Muir) ونولدكه (Noldeke) اضطروا للاعتراف بأن كل كلمة من القرآن الكريم هي هي كما قدّمها محمد ﷺ إلى العالم، ولم يطرأ عليه أدنى تغيُّر أو تبدُّل (Life Of Mahomet p. 562-563 والموسوعة البريطانية المجلد ١٥: كلمة KORAN). فإذا وُجد في وحي القرآن الكريم قَسمٌ لكان دليلاً حاسمًا على أن محمد ﷺ قد حلف بصدقه فيما نـــزل عليه من الوحي، أما إذا خلا القرآن الكريم من الحلف، فالأيمان الأخرى الواردة في الحديث لا تساوي القسم القرآني أبدًا من حيث اليقين والقطعية. إذًا، فلا بد من وجود

دليل القَسم في وحي الله تعالى لتقوم هذه الشهادة الداخلية بتكميل الشهادات الأخرى.

والجواب الثاني أن الحلف في وحي الله تعالى يكون من عند الله تعالى فقط ولا يكون من عند النبي أبدًا، إذ لو كان الحلف من قِبل النبي لما بقي الوحي نقيًا بل اختلط كلام البشر مع كلام الله تعالى. مثلا لو أن محمدًا ﷺ قال: أحلف بالله أنه بعثني، ووُجدت هذه الكلمات في القرآن لدل ذلك على اختلاط كلام البشر بوحي الله تعالى، مع أن القرآن الكريم كله كلام الله تعالى من باء البسملة إلى سين ﴿والناسِ﴾. أو لو وجد في القرآن قولُ محمد رسول الله ﷺ: يا أيها الناس، أحلف بالله أني رسول الله إليكم جميعا، لاختلط كلام البشر بكلام الله تعالى. أو لو ورد في كلام الله تعالى، يا محمد، نأمرك أن تحلف للناس على صدق دعواك، لظلّتْ هناك شبهة فيما إذا كان قد حلف أم لم يحلف؛ فمثلاً قد ورد في مواضع عديدة من القرآن قوله تعالى ﴿قُلْ﴾.. أي قُلْ يا محمد للناس كذا وكذا، وإننا نوقن أن النبي ﷺ قد قال للناس كل ما أمَره الله به، إلا أن كلمة ﴿قُلْ﴾ لا تُقنِع الخصوم بالضرورة بأنه (ﷺ) قد قال للناس فعلاً كل ما أُمر به. كذلك لو وُجد في القرآن قول الله تعالى لمحمد ﷺ أن يُقسِم، فإن الخصم قد يقول لا ندري ما إذا كان محمد قد أقسَمَ أم لا.

باختصار سيضيع غرض الحلف في الحالين، أعني لو ورد قسم الرسول ﷺ في كلام الله تعالى لاختلط كلام البشر مع كلام الله تعالى، ولو أمر الله تعالى في وحيه رسولَه بأن يقسم لظل الناس في شبهة فيما إذا كان أقسم أم لا. أما إذا حلف في غير الوحي فيظل الوحي غير كامل أيضًا لخُلُوِّه من هذه الوسيلة المؤكدة القوية.

ثم يجب الأخذ في الاعتبار أن الأمور التي أقسم بها القرآن أو استشهد بها على صدقه هي حتمًا أمور غيبية لا علم ولا قدرة للرسول ﷺ على معرفتها – وكل الأقسام القرآنية هي من هذا القبيل في رأيي – فكيف يمكن أن يقدمها الرسول ﷺ شهادة على صدقه؟ كلا، بل إن الله العليم الخبير وحده الذي يمكن أن يقدمها وهو الذي أقسم بها. إذًا فالقول إن القَسم يجب أن يقوم به الإنسان الذي نزل عليه

الوحي لا الله ﷻ باطل تمامًا، ذلك لأن النبي ﷺ لم يكن عنده علم بهذه الأمور، كما لم تكن هي تحت تصرُّفه وسيطرته، فكيف يمكن أن يُقسِم بها؟ إذًا، فلما كانت الأَقسام تحتوي على علم الغيب، فمن المستحيل أن يحلف بها النبي لأنه لا يعلم ما يخفيه المستقبل، وإنما الله وحده الذي هو عالم الغيب يمكن أن يُقسِم بها ويقدّمها كشهادة.

ولو قيل ما الداعي للقَسم أصلاً، فكثير من الناس لا يقيمون للقَسم وزنًا ويقولون يجب أن لا يُقسِم العبد، دعك أن يُقسِم الله نفسُه، فمثلاً لما تحدّى المسيحُ الموعود عليه السلام القسيسَ "عبدَ الله آتهم" أن يعلن بين الناس حالفًا بالله تعالى أنه لم تستولِ على قلبه هيبة نبوءته عليه السلام المتعلقة بهلاكه، ما كان جواب المسيحيين إلا قولهم إن الحلف ليس محبّذًا ولا نرضى بهذه الطريقة لحسم القضية (ضياء الحق، الخزائن الروحانية المجلد ٩ ص ٢٥٦-٢٥٧). إذًا، فهناك كثير من الناس الذين لا يقيمون للقَسم وزنًا ويقولون يجب أن لا يتضمن كلام الله تعالى أي قَسم.

والجواب الأول: لا شك أن بعض الناس لا يعيرون القَسم وزنًا، ولكن هذا لا يقلّل من قيمة القسم. علينا أن نرى ما إذا كان القَسم ذا قيمة في حد ذاته أم لا؟ فإذا كان ذا قيمة فلا يجوز ترك هذه الحقيقة بحجة أن البعض لا يوليها أية أهمية. إذا كان هنالك إله فلا بد أن يصيب الحالفَ باسمه كذبًا عذابٌ شديدٌ منه شريطة أن يضر هذا القَسم الناس ضررًا كبيرًا ولا يكون من قبيل اللغو.

فثبت أن القَسم دليل عظيم في حد ذاته، ولا يمكن تركه بحجة أن بعض الناس لا يأبهون به.

والجواب الثاني: إذا كانت فئة من الناس لا تعتبر القَسم ذا قيمة، فإن فئة أخرى تعدّه دليلا قويا حاسمًا. صحيح أن بعض الناس يعتبرون الحلف عبثًا، لكن الآخرين لا يطمئنون من دون قَسم، ولا بد للوحي الذي ينـــزل للعالم كله أن يحقق ما تطالبه بعض الفئات ما دامت مطالبتها معقولة. والقرآن الكريم ليس فقط لمن لا يقيم للقسم وزنًا، بل هو للعالم كله وللإنسانية جمعاء التي فيها أيضا تلك الفئة التي لا تطمئن إلا بالقَسم. فالذين لا يرون ضرورة القَسم يمكنهم الانتفاع من الآيات

القرآنية الخالية من القَسم، أما الذين يرون ضرورة القَسم فيمكنهم الانتفاع من الآيات التي فيها قَسَمٌ. ولو أن القرآن الكريم حقق مطالب إحدى الفئتين دون الأخرى لما اعتُبر للإنسانية جمعاء، بل كان خاصًّا بفئة محدودة منها.

باختصار، لما كان في الدنيا فئة تثق بالقَسم بل تراه ضروريا، فمن واجب القرآن أن يذكر – علاوةً على الأدلة الأخرى– ذلك الدليل الذي تراه فئة من الناس ضروريا ولا يهمله أبدًا. ورد في الحديث أن شخصًا حضر إلى النبي ﷺ وقال: أستحلفك بالله تعالى، آللهُ أرسلك بهذا؟ فقال ﷺ: أحلف بالله أني لا أقول هذا من عند نفسي، بل أقوله بأمر الله تعالى. فآمن الرجل فورا. (البخاري: كتاب العلم، ومسلم: كتاب الإيمان). فهذا يعني أن هذا الشخص لم يقتنع بأدلة أخرى، ولكنه اقتنع فورًا لما حلف له النبي ﷺ.

إذًا، فهناك فئة في الدنيا لا تطمئن إلا بالقَسم، ولو خلا وحي الله تعالى من القَسم لظلت هذه الفئة محرومة من قبول الحق، ولتعرَّضَ الوحي القرآني للطعن بأنه قد أهمل مطالبة معقولة لإحدى شرائح المجتمع رغم ادعائه بأنه هدى للناس جميعًا.

وقد وُجد مثل هؤلاء القوم في زمن المسيح الموعود عليه السلام أيضًا، فذات مرة جاءه عليه السلام شخصٌ وقال: هل تستطيع أن تكتب لي حلفًا بالله تعالى بأنه هو الذي بعثك مسيحًا موعودا؟ فقال له حضرته تعال إلي بعد أسبوع، فحضر الرجل بعد أسبوع، فكتب له المسيح الموعود عليه السلام عبارة فحواها: أُقسِم بالله تعالى أن كل ما قلتُ في كتبي وبينتُ في خطبي من علوم ومعارف إنما هي هبة ربانية، وأن الله تعالى نفسه قد أمرني بعرضها على الناس، وقد ادعيتُ بأني المسيح الموعود والمهدي المعهود بأمر من الله تعالى.

ولعله عليه السلام قد اشترط على السائل أن يحضر بعد أسبوع ليعرف مدى جدّيته في الأمر؛ ذلك لأن بعض الناس يسألون بعض الأسئلة وهم غير جادّين، فلكي يمتحن حضرته عليه السلام الرجل أمره بالمجيء بعد أسبوع، ولما رأى أنه جادٌّ في الأمر وأنه فاز في الامتحان إذ جاءه في الموعد ثانية متكبدًا مشقة السفر، كتب له العبارة المطلوبة.

فثبت من هنا أن هناك فئة من الناس لا تبحث عن أي دليل إلا القَسم، فيقولون: إذا كنتَ صادقًا فيما تقول، فاحلفْ بالله على ذلك. لذا فكان ضروريا لإصلاح هؤلاء وهدايتهم أن يتضمن القرآن بعض الأقسام والأيمان حتى لا يظلّوا محرومين من الهدى.

والجواب الثالث: إن أقسام القرآن تشكِّل في حد ذاتها دليلا عظيما على صدقه، والحق أنه حيثما أقسم الله تعالى في القرآن إنما استشهد بالمقسَم به على صدق الوحي القرآني، مبيِّنًا أن هذه الأشياء لو شهدت على هذه الأمور فقد ثبت أن القرآن هو كلام الله تعالى، وإذا لم تشهد عليها فيحق لكم أن تقولوا إنه ليس وحي الله تعالى. فسواء سميتم هذا القسم حلفًا أو شهادة فهذا لا يغير من الحقيقة شيئًا، بل لو ورد القسم في القرآن كمجرد شهادة لدلت على صدقه؛ فالذين لا يقيمون للحلف وزنًا يمكن أن ينتفعوا به باعتباره شهادة، والذين يعتبرون الحلف ذا قيمة، فيمكنهم الانتفاع به باعتباره شهادة مؤكدة بالقَسم. إذًا، فإن القَسم يُقنع أصحاب طبيعتين مختلفتين في وقت واحد؛ فهو — إذن – جدير بالتقدير، وليس مدعاة للاعتراض؛ إذ حقق الغرض بنوعيه.

سنورد عند تفسير الآية الأولى التي تبدأ بالقَسم بحثًا كاملا موجزًا في موضوع القَسم في القرآن، أما البحث التفصيلي فنورده لدى تفسير كل آية تبدأ بالقَسم. وهناك كتاب جدير بالمطالعة باسم (التبيان في أقسام القرآن) للإمام ابن القيم وقد بيّن فيه أمورا نافعة؛ جزاه الله عن المسلمين خيرًا.

أما الأشياء التي أقسمَ الله بها في هذه الآية والآيات الأخرى فسوف نتحدث عنها بالتفصيل عند تفسير قوله تعالى ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾.

وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿٣﴾

شرح الكلمات:

الناشطات: نشَط ينشُط نَشْطًا الحبلَ: عقَده. ونشَط العُقْدةَ: شَدَّها. ونشَط الدلوَ مِن البئر: نـــزَعها بغير قامة وانتشلها بلا بَكْرةٍ. ونشَط زيدًا: طعَنه. ونشَطته الحيّةُ:

عضّتْه. ونشط من المكان: خرج، ونشط من بلد إلى بلد: قطَع. ونشِط ينشَط نشاطًا: طابتْ نفسُه للعمل ونشَطت الإبلُ: مضتْ على هدى أو غير هدى. (المنجد، والأقرب، والمخصص)

فالناشطات هي:

١- الكائنات التي تعقد الشيء بالشيء.

٢- الفئات التي تبذل في عملها قصارى جهدها.

٣- الجماعات التي تطعن بالرماح.

التفسير: سيأتي تفسير هذه الآية تحت قوله تعالى ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾.

وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ﴿٤﴾

شرح الكلمات:

السابحات: سبَح الرجلُ: تصرَّفَ في مَعاشه؛ نامَ وسكَن؛ أبعدَ في السير. وسبَح في الكلام: أكثرَ منه. وسبَح في الأرض: حفَر فيها. وسبَح بالنهر وفي النهر: عامَ وانبسط فيه. وسبَح سبحانًا: قال سبحان الله. (المنجد، والأقرب)

فالسابحات هي:

١- الجماعات التي تذهب في سيرها بعيدا.

٢- الجماعات القادرة على الكلام.

٣- الجماعات التي تُجيد السباحة والعوم.

٤- الجماعات التي تتصرف لمعاشها بنفسها.

التفسير: سيأتي تفسير هذه الآية تحت قوله تعالى ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾.

فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ﴿٥﴾

شرح الكلمات:

سَبْقًا: سبَقه يسبِق سَبْقًا: تَقدَّمه وجازَه وخلّفه. وسبَق على الشيء: غلَبه. (الأقرب)

فالسابقات هي:

١- الجماعات التي تتسابق فيما بينها.

٢- الجماعات التي تتغلب على الآخرين.

التفسير: سيأتي تفسير هذه الآية تحت قوله تعالى ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾.

فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾

شرح الكلمات:

المُدبِّرات: دبَّر الأمرَ: رتَّبه ونظَّمه؛ نظَر في عاقبته وتَفكَّر. ودبَّر الوالي أقطاعَه: أحسنَ سياستها. (الأقرب)

فالمراد من قوله تعالى ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ الجماعاتُ التي تقوم بعَملها بالنظر في جميع جوانبه وفي عاقبته. وكأن الله تعالى قد بيّن في كلمة ﴿فالْمُدَبِّرَاتِ﴾ مسؤولية القائمين بالأمر بأنهم يقومون به متفحصين جميع جوانبه، لا أن يركّزوا على جانب ويهملوا الآخر.

التفسير: قبل تقديم وجهة نظري حول هذه الآيات، أود إيراد أقوال السلف من الصحابة والمفسرين القدامى بصددها، لنعرف المفاهيم التي ذكروها. وملخص ما قاله هؤلاء كالآتي:

قال صاحب الكشّاف عن قوله تعالى ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۞ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ۞ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾: "أقسمَ سبحانه بطوائف الملائكة التي تنـــزع الأرواحَ من الأجساد، وبالطوائف التي تنشطها أي تُخرجها، مِن نَشَطَ الدلوَ من البئر إذا أخرجَها، وبالطوائف التي تسبَح في مُضيِّها أي تُسرِع فتسبق إلى ما أُمروا به، فتُدبِّر أمرًا من أمور العباد." (الكشاف)

وقال صاحب "فتح البيان" بعد ذكر هذا المعنى: "وهذا قول الجمهور من الصحابة والتابعين ومن بعدهم.

وقال السدي: ﴿النازعات﴾ هي النفوس حين تغرق في الصدور (يعني وقت الموت). وقال مجاهد: هي الموت ينـــزع النفسَ. وقال قتادة: هي النجوم تنـــزع من أفق إلى أفق، مِن قولهم: نزعتُ بالحبل، أي أنها تغرب وتغيب وتطلع مِن أفق آخر، وبه قال أبو عبيدة والأخفش وابن كيسان.

وقال عطاء وعكرمة: ﴿النازعات﴾ القِسيُّ تنـــزع بالسهام، وإغراق النـــزاع في القوس أن يمدّه غايةَ المدّ حتى ينتهي به إلى النصل. وقيل: أراد بالنازعات الغُزاة الرُماة، وانتصابُ ﴿غَرْقًا﴾ على أنه مصدرٌ محذوفُ الزوائدِ أي إغراقًا... يقال أغرقَ في الشيء يُغرِق فيه إذا أوغل فيه وبلغ غايته (فتح البيان). وكأن التقدير عنده كالآتي: والنازعاتِ والمُغرِقاتِ غرقًا أو إغراقًا.

"وعن علي ﷺ قال: هي الملائكة تنـــزع أرواح الكفار." (فتح البيان)

أما قوله تعالى ﴿والناشطات نشطًا﴾، فقد ورد عنه: "عن ابن عباس قال: هي أنفسُ الكفار تنـــزع ثم تنشط ثم تغرق في النار. وقال مجاهد: هو الموت ينشط نفسَ الإنسان، وبه قال ابن عباس. وقال السدي: هي النفوس حين تنشط من القدمين – وكأن النفس عنده تكون موزّعة في الجسد كله وحين تخرج منه من ناحية القدمين تسمى الناشطات – وقال قتادة والحسن والأخفش: هي النجوم تنشط مِن أفق إلى أفق أي تذهب. وقال في الصحاح: ﴿والناشطاتِ نشطًا﴾ يعني النجوم من برج إلى برج. وقيل: ﴿الناشطات﴾ لأرواح المؤمنين، و﴿النازعات﴾ لأرواح الكافرين. بينما يرى علي ﷺ: هي الملائكة تنشط أرواح الكفار. وقد روى مردويه عن معاذ بن جبل حديثًا أن الناشطات هي كلاب النار تنشط اللحم والعظم. وهذا يعني الناشطات ليست إشارة إلى أرواح المؤمنين بل إلى أرواح الكافرين، لأن كلاب النار لا تنهش إلا لحوم الكافرين. (فتح البيان)

أما قوله تعالى ﴿والسابحات سبحًا﴾ فقال بعضهم: هي الملائكة تسبح في الأبدان لإخراج الأرواح كما يسبح الغوّاص في البحر لإخراج شيء منه، يعني الملائكة يقبضون أرواح المؤمنين يسلّونها سلاًّ رفيقًا.

وقال مجاهد وأبو صالح: هي الملائكة ينـــزلون من السماء مسرعين لأمر الله، كما يقال للفرس الجواد: سابح إذا أسرع في جريه. وقال مجاهد أيضًا: السابحات الموتُ يسبح في نفوس بني آدم. وقيل: هي الخيل السابحة في الغزو. وقال قتادة والحسن: هي النجوم تسبح في أفلاكها كما في قوله تعالى ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾(الأنبياء:٣٤). وقال عطاء: هي السفن تسبح في الماء. وقيل: هي أرواح المؤمنين تسبح شوقًا إلى الله. وقال علي ﷺ: هي الملائكة تسبح بأرواح المؤمنين بين السماء والأرض. (فتح البيان)

أما قوله تعالى ﴿فالسابقات سبقًا﴾ فقال مجاهد ومسروق: تسبق الملائكةُ الشياطينَ بالوحي إلى الأنبياء. وقال أبو روق: هي الملائكة سبقتْ ابنَ آدم بالخير والعمل الصالح، وروي نحوه عن مجاهد. وقال مقاتل: هي الملائكة تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة. وقال الربيع: هي أنفسُ المؤمنين تسبق إلى الملائكة شوقًا إلى الله. وقال علي ﷺ: هي الملائكة سبق بعضها بعضًا بأرواح المؤمنين إلى الله تعالى. وقال مجاهد أيضًا: هو الموت يسبق الإنسانَ. وقال قتادة والحسن ومعمر: هي النجوم يسبق بعضها في السير بعضًا. (فتح البيان)

وأقول هنا – ضمنيًا – إن القول الأخير خلاف للقرآن الكريم، لأن الله تعالى يخبر فيه أن الليل والنهار يتناوبان بحسب ناموس إلهي محدد، وأن كل النجوم والأجرام تدور بحسب هذا القانون، ولا يسبق بعضها بعضًا. قال الله تعالى ﴿لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾(يس:٤١). فهذه الآية تفنّد القول المشار إليه.

وقال عطاء: هي الخيل التي تسبق إلى الجهاد. قال الجرجاني: عطَف السابقاتِ بالفاء لأنها مسبِّبة عن التي قبلها، أي واللاتي يسبحن فيسبقن.. أي أنها تصبح سابقات

لكونها سابحات. ولكن الواحدي رفض هذا الدليل محتجًا بقول الله تعالى بعد ذلك ﴿فالمدبرات أمرًا﴾، فيبعد أن يجعل السبق سببًا للتدبير.

وقال الرازي: ويمكن الجواب عما قاله الواحدي بأنها لما أُمرتْ سبحتْ فسبقتْ فدبّرتْ ما أُمرتْ بتدبيره، فتكون هذه أفعالاً يتصل بعضها ببعض.

وقد ردّ صاحب "فتح البيان" على الرازي فقال: ويجاب عنه بأن مجرد الاتصال لا يوجب السببية والمسببية، لأن الفاء تفيد العطف أيضًا. (فتح البيان)

لقد نقلت هذا البحث ههنا هدايةً وتبصرةً للذين يحاولون حصر معاني الفاء في السببية. غير أنه لا يصح أيضا القول بأن استخدام الفاء هنا كان بدون داع، بل يتضح من استخدام الفاء بعد الواو هنا أن الموضوع السابق قد تغير، وإلا فلماذا لم يتم العطف بالواو في الآيتين الأخيرتين كما تم في الأولى والثانية – علمًا أن الواو في الآية الأولى للقَسم– الواقع أنه قد جيء هنا بالفاء لمعان جديدة أخرى، الأمر الذي من أجله استُبدلت الفاء بالواو هنا، وإلا فلم تكن ثمة حاجة لترك الواو. فما هو ذلك المعنى الجديد هنا؟ هو برأيي الترتيب. فلا بد أن تحتوي هاتان الآيتان معاني تدل على الترتيب، غير أنه لا يمكن فهمها إلا بعد وضوح معاني الآيتين الأولى والثانية، وسوف نذكر تلك المعاني لاحقًا.

أما قوله تعالى ﴿فالمدبرات أمرا﴾ فقال علي ﷺ: هي الملائكة تدبّر أمر العباد من السنة إلى السنة. وقال ابن عباس: ملائكة يكونون مع مَلَكِ الموت يحضرون الموتى عند قبض أرواحهم، فمنهم من يعرج بالروح، ومنهم من يؤمّن على الدعاء، ومنهم من يستغفر للميت.

وقال القشيري: أجمعوا على أن المراد هنا الملائكة. وقال الماوردي: فيه قولان: أحدهما الملائكة، وهو قول الجمهور، والثاني إنها الكواكب السبع. وفي تدبيرهما الأمرَ وجهانِ: أحدهما تُدبِّر طلوعها وأفولها، والثاني: تدبّر ما قضاه الله فيها من الأحوال. (فتح البيان)

هذا ملخص ما ورد في التفاسير القديمة بصدد هذه الآيات الخمس. وفيما يتعلق بالمعاني التي ذكروها لهذه الكلمات فلا اعتراض على ما يصح لغةً منها، لأن ما

يصح لغة يمكن أن ينطبق في محله، ولكن إذا أردنا تفسير كلامٍ تفسيرا صحيحا فلا بد لنا من أن نأخذ في الحسبان سياقه والقرائن المحيطة به. فلو كان السياق واضحًا نظرنا إليه أوّلاً لفهم الكلام، وإذا كان السياق غير واضح نظرنا إلى القرائن المحيطة. فمثلاً سمعنا شخصًا يقول: أَسْرِعْ إلى السوق واشترِ كذا وكذا، وعرفنا أن خادمه موجود عنده، وحيث إننا علمنا سياق قوله فنفهم أنه يعني خادمه، ويأمره بشراء ما يريد من السوق. أما إذا لم نراعِ هذا السياق، وبدأنا نستنتج من كلامه استنتاجات أخرى فقلنا مثلا: إنه لا يخاطب خادمَه، بل كلامه موجه إلى أي إنسان، لأن كلَ إنسان يمكن أن يسرع؛ أو قلنا إنما يعني أحد الملوك، ثم إذا سئلنا عن دليل قلنا: ألا يستطيع الملِك أن يسرع أو يشتري من السوق؛ أو قلنا: إنه يعني بقوله فلانًا من الفلاسفة، أو فلانا من الأثرياء.. أقول لو فسرنا قوله بهذا الأسلوب فسيحكم كل عاقل بجنوننا وحمقنا حتمًا، ويقول: لماذا لا تنظرون إلى سياق كلامه؟ ألا ترون أن خادمه كان واقفًا إزاءه عندما تفوه بهذا الكلام؟ لا شك أن الملِك يمكن أن يسرع، وكذلك الفيلسوف والثري، ولكن علينا أن ننظر إلى سياق كلامه، أما إذا أهملنا السياق، وبدأنا نفسر كلامه تخمينًا، فقال الأول إنه يخاطب ملِكًا، وقال الآخر إنه يعني فيلسوفًا، وقال الثالث إنه يعني ثريًّا، فسيضحك الجميع منا، ويقولون: ماذا دهاكم؟ ألا تفهمون إلى من وجّه كلامه؟ لا شك أن الملك والفيلسوف والثري يمكنهم أن يسرعوا ويشتروا، ولكن لا بد من أخذ سياق كلامه في الاعتبار. ألا ترون أن خادمه كان أمامه عندما قال: أسرِعْ واشترِ من السوق؟ إذًا، فإنه قد وجّه كلامه إلى خادمه فقط لا إلى أي شخص آخر.

لقد ثبت من هذا المثال أننا إذا أردنا أن نفهمَ قول إنسان فلا بد لنا من أن ننظر أولاً إلى سياق كلامه، أما إذا أهملنا السياق وبدأنا تفسير قوله جزافًا وتخريصًا، فهذا ليس من العقل في شيء.

والأمر الآخر أننا إذا لم نعرف سياق الكلام فعلينا أن ننظر إلى القرائن المحيطة به. فمثلا نرى شخصًا دخل بيته، فاحتاج إلى شيء ولكن خادمه لم يكن أمامه، وظنّ أنه داخل البيت، فصاح: أسرِعْ وافعلْ كذا؛ فمع أننا لا نرى خادمه، لكن هناك

قرينة تساعدنا على فهم قوله، وهي أنه يتكلم بهذا الكلام في بيته، إذًا، هو يخاطب خادمه حتمًا. أما إذا أهملنا هذه القرينة وقال أحدنا إنه يقصد بقوله بعض الجيران، وقال الآخر: بل إنه يعني فلانا، وقال الثالث: كلا، إنه يعني علانا؛ لكان هذا التخمين منا عبثًا لأن الناس سيقولون لنا: عليكم بمراعاة القرينة المحيطة بكلامه حتى تعرفوا قصده. القرينة تبيّن أنه قد تكلّم بهذا الكلام في بيته، والقياس يدل على أنه قد وجّه كلامه إلى خادمه، أو إلى ابنه لأن الابن بمنـــزلة الخادم، أو لبعض أقاربه الآخرين كابن الأخ أو الأخت. أما إذا لم نراع القرينة ولم نضعها في الحسبان، وبدأنا نقول إنه ربما يوجه هذا الكلام لفلان أو علان فلن يُعتبر قولنا معقولا.

والحال نفسه ينطبق لدى تفسير هذه الآيات، فلا يهمنا المعنى اللغوي للنازعات أو الناشطات أو السابحات أو السابقات أو المدبرات فحسب، بل المهم هو المعنى الذي يتوافق مع السياق والقرائن؛ لذا فعلينا أن ننظر فيما إذا كان المعنى الذي يذكره المفسرون ينطبق هنا أم لا. ولهذا الهدف سننظر أوّلاً إلى ترتيب هذه الكلمات ثم سنركّز على العلاقة التي تربط هذه الآيات بعضَها ببعض، كما سننظر إلى علاقة هذه الآيات بما قبلها وبما بعدها. وباختصار، نضع عند التدبر أمورًا كثيرة في الاعتبار، وننظر على ضوئها ما إذا كان هذا المعنى يتوافق معها أم لا. فإذا توافق أخذنا به، وإلا تركناه.

خُذوا مثلا قوله تعالى ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾، فقد قال بعض المفسرين إنها النجوم التي تظهر من أفق وتغيب في آخر، ولكنهم يعودون فيفسرون قوله تعالى ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ بالمعنى نفسه أيضا! فالسؤال الأول الذي يطرح نفسه هنا: هاتان آيتان اثنتان، فلم لا يذكرون لهما مفهومين اثنين؟ أليس عجيبًا أن نقول إن ما يعنيه الله تعالى بقوله ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ هو ما عناه نفسَه بقوله ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ دون أن يضيف أي معنى جديد؟ لا شك أن هذا عيب كبير يوجد في كلام رديء غير فصيح مطلقًا، ولكن من المحال أن يوجد في كتاب الله تعالى المنـــزه عن كل نقص وعيب ويفوق كتب العالم كلها في فصاحته وبلاغته؛ فكيف يمكن أن يعني الله

تعالى بقوله ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ سيرَ النجوم من أفق إلى آخر، ويقصد بقوله تعالى ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ أيضًا الأمرَ نفسَه؟

وهذا أول دليل على أن معنى النجوم، وإن صَحَّ لغةً، إلا أنه لا ينطبق في هذه الآيات. كان يمكن الأخذ بهذا المعنى في حالة واحدة؛ وهي إذا كانت الآيتان تفيدان مفهومين مختلفين. فاضطرار المفسرين لتفسير الآيتين بمعنى واحد دليلٌ ساطع على خطأ الأخذ بهذا المعنى؛ لأن قوله تعالى ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ يؤدي المعنى الذي يريدونه، وبالتالي سيُصبح قوله تعالى ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ كلامًا مهملاً ليس فيه مفهوم إضافي. وهذا مستحيل.

أما قوله تعالى ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾ فيقولون إنها النجوم التي تسبح في الأفلاك، مستدلين بقوله تعالى ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾(الأنبياء:٣٤)، ثم يعودون ويفسرون قوله تعالى ﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾ بأنها أيضًا النجوم التي تسابق بعضها بعضًا؛ مع أن القرآن الكريم قد أكّد بشدّة أن كُلاً من هذه الكواكب يدور في مداره، وليس أن الشمس تحاول أن تسبق القمر أو أن القمر يحاول أن يسبق المريخ. ومع هذا البيان القرآني الواضح يفسر هؤلاء هذه الآيات وكأن الشمس والقمر والنجوم كلها ذوات حياة، وتسعى كل واحدة منها أن تسبق الأخرى. ما الفائدة لو سبقت الشمس القمرَ يا ترى؟ كلا، بل فيه ضرر ودمار للنظام الشمسي كله. يجب أن يكون السباق فيما ينفع العالم لا فيما يضره ويدمره.

ثم يقولون عن قوله تعالى ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ أيضا إنها النجوم، مع أن القرآن والحديث يصرّحان أن تدبير الأمر بيد الله، لا بيد النجوم. قال النبي ﷺ قال الله ﷻ: "مَن قال مُطِرْنا بنَوءٍ (أي نجم) كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب" (البخاري، كتاب الاستسقاء). فترى أن النبي ﷺ يُعلن بأمر الله تعالى أن النجوم لا دخل لها في تدبير الأمر، ولكن معظم المفسرين يقولون إن المراد بقوله تعالى ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ هي النجوم.

إذًا، فهذه المعاني التي يذكرونها.. بعضها مرفوض بنص القرآن وبعضها مرفوض بالاستدلال، وقبول بعضها يضطرّنا لاعتبار بعض كلمات القرآن زائدة مهملة، لأن

الآية الأخرى تفيد المعنى السابق نفسه من دون أي مفهوم إضافي، مع أن القرآن كلام الله تعالى، وكل كلمة فيه تنطوي على حكمة بالغة.

والغريب أن بعضهم يفسر قوله تعالى ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ بأنها جماعات الملائكة الذين يدخلون في أعماق الجسم ويقبضون الأرواح، بينما يقول بعضهم إنها النفوس التي تغرق في الصدور. ويفسر بعضهم قوله تعالى ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ بأنها النفوس التي تخرج من الأقدام، بينما يقول بعضهم إنه الموت الذي يُخرِج النفوس الإنسانية. ويفسر بعضهم قوله تعالى ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾ بأنها الملائكة التي تقبض نفوس المؤمنين برفق، بينما يقول بعضهم الآخر إنها الميتات (جمع الميتة) التي تسبح في الجسم. ويقول بعضهم عن قوله تعالى ﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾ أنها الملائكة التي تستبق بأرواح المؤمنين، بينما يقول الآخر إنها الميتات التي تلاحق الناس وتتخطفهم. ويقول بعضهم عن قوله تعالى ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ إنها الملائكة التي تأتي مع مَلَكِ الموت. فهذه خمس جمل فسروا كل واحدة منها بمعنى الموت، حيث قال بعضهم إن الأرواح تُنـــزع من الأقدام، وقال بعضهم إن الموت يسبح في الأجسام الإنسانية كالسهم، وقال بعضهم إن الموت يلاحق الإنسان فيتخطفه. ثم ما العبرة في سباحة الموت في الجسم كالسهم أو خروجه من الأقدام، على فرض صحة ذلك؟ ثم كيف يمكن أن تكون كل جملة تتحدث عن الموت فقط بدون أن تضيف أي معنى جديد؟ فيفسرون الجملة الأولى والجملة الثانية والجملة الثالثة كلها بمعنى خروج الروح من الجسم. ماذا يعني هذا الكلام؟ وما هو غرض القرآن من هذا التكرار حيث يتحدث مرة بعد أخرى عن قبض الروح فقط من دون أي غاية إضافية أو فائدة جديدة؟ ماذا ينفع هذا الكلام الناسَ علمًا وأخلاقًا وروحانية؟ هل زادهم علمًا؟ وهل كشف عليهم غيبًا؟ فما الفرق لو خرجت الروح من الأقدام أو من الأيدي والأطراف؟ من مات فقد مات، سواء أَخَرجتْ روحه من قدمه أو رأسه. إنهم لا يذكرون أي حكمة لهذا الكلام، ويفسرون هذه الآيات الخمس من كلام الله تعالى تفسيرًا عشوائيا ويقولون إن المراد منه الموت فقط.

ثم إنهم اختلفوا في تفسير كل آية من هذه الآيات، فمثلا: نقل ابن مردويه عن معاذ بن جبل أن الناشطات هي كلاب جهنم التي تنهش لحومهم، بينما قال غيره إنها الملائكة التي تقبض أرواح المؤمنين؛ وشتّان بين المعنيين في التفسيرين! لقد تبين من هنا أن المفسرين لم يتفقوا على معنى واحد، بل اختلفوا في كل مرة.

هنالك معنى واحد اتفقوا عليه، وهو الملائكة، حيث تجد معظم الصحابة والتابعين والذين جاءوا من بعدهم متفقين على أن النازعات والناشطات هي جماعات الملائكة، إلا أنهم واجهوا مشكلة حيث ذكروا للنازعات والناشطات معنى واحدًا، وهو جماعات الملائكة التي تقبض الأرواح، وهكذا تبقى المشكلة في مكانها رغم قبول هذا المعنى، لأننا نسأل: لماذا جيءَ بآيتين لأداء معنى واحد؟

وبرغم التفاصيل التي ذكرها المفسرون، والتي تُعرِّض كلام الله تعالى لتكرار لا مبرر له، إلا أنه ليس من المستبعد قبول معنى الملائكة نظرًا إلى السياق، بل هذا أقرب إلى القياس، كما أن مضمون الآية يؤيد هذا المعنى.

لا شك أن التكرار موجود في بعض مواضع القرآن الكريم، ولكنه تكرار مفيد يتضمن معنى إضافيا، ولولا ذلك التكرار لضاع المعنى الإضافي. أما التكرار بدون مفهوم إضافي فهو عيب تنـــزّهَ عنه كلام الله تعالى تمامًا. فلو أزلنا هذا العيب وأخذنا بمعنى الملائكة لدى تفسير هذه الآيات أصبح هذا المعنى أقرب إلى القياس وأكثر انسجامًا مع سياق الآيات.

والمعنى الثالث الذي تشير إليه التفاسير هو أن المراد من النازعات هنا الغزاة الرماة الذين يَعْدون ويسبحون بخيولهم أثناء الغزوات. ومع أن هذا المعنى هو الأقرب إلى القياس والأوفق مع السياق، إلا أن المفسرين لم يتنبهوا إليه إلا قليلا. فإذا استطعنا أن نبني تفسيرنا على هذا المعنى، فلا يحق لنا الادّعاء بابتكار هذا المعنى، بل لا بد من الاعتراف بالفضل للسلف بمن فيهم معظم الصحابة والتابعين وكبار المفسرين، إذ اهتدوا إليه قبلنا.

كما يمكن انطباق معنى الغزاة أيضًا على هذه الآيات، مع أننا لا نستطيع الجزم ما إذا كان مرويًا عن التابعين أم لا. وما دام المفسرون قد ذكروا هذا المعنى، فلا بد لنا

من الاعتراف بالفضل الكبير لهم في إرشادنا إليه، ذلك لأن بناء العمارة عملية صعبة بدون شك، إلا أن تصميمها وتخطيطها أصعب منه.

باختصار، هذان هما المعنيان الأقرب إلى القياس والأوفق مع السياق، وإن كان المفسرون قد وقعوا في أخطاء كثيرة في تطبيقهما على هذه الآيات. فمثلا تطبيقهم لمعنى الملائكة على هذه الآيات مضطرب جدا؛ فحينًا لا يبقى هناك أي ترابط بين الآيات، وحينا آخر يختلّ ترتيبها، وحينا ثالثًا يضطرون إلى تكرار بلا داعٍ. فلا بد لنا من حل هذه الإشكاليات ما دمنا نقبل هذا المعنى ونأخذ به.

وقبل أن أقوم بتفسير هذه الآيات أرى لزامًا توضيح أمر مهمّ، وهو أن أربعًا من هذه الآيات الخمس تنتهي بمفعول مطلق، بينما تنتهي الأخيرة منها بمفعول به، حيث قال الله تعالى ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۞ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ۞ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ۞ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ۞ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾.. فغَرْقًا ونَشْطًا وسَبْحًا وسَبْقًا كلها مفاعيل مطلقة، أما ﴿أَمْرًا﴾ فهو مفعول به. ولن أتحدث هنا عن قوله تعالى ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾، بل سأتحدث عن المفاعيل المطلقة، فأقول إن ثلاثة من هذه المصادر هي من نفس الجذر الذي اشتُقت منه الأسماء الواردة قبلها، بينما الأول منها، وهو ﴿غَرْقًا﴾، ليس مشتقًّا من الجذر الذي اشتُقّ منه الاسم الوارد قبله، بل قيل ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾، مع أن مصدرَ الفعْلِ نَزَعَ هو نَزْعًا أو نُزوعًا أو نَزاعةً ونِزاعًا، ولكن الله تعالى لم يستخدم أيًّا من هذه المصادر، بل استعمل مكانها كلمة أخرى: ﴿غَرْقًا﴾. فما سببُ ذلك؟

فليكن معلومًا أن في ذلك حكمة بالغة، وهي أن المعنى أحيانًا لا يتحدد بالفعل وحده في اللغة العربية، بل يأتون بعده بمصدر لتحديد المعنى. فمثلا فعلُ (نَزَعَ) يعني قَلَعَ فقط، ولكن للنَّزْع معان عديدة منها امتناعُ المرء عن الكلام، أو رغبتُه في شيء، أو مشابهتُه بآخر، فإذا جئنا بعد (نَزَع) بمصدر تحدَّدَ معناه الذي يبينه ذلك المصدر. فمثلاً إذا قلنا: نَزَعَ نَزْعًا فيعني أنه قلَع الشيءَ أو عزَله، ولا يعني شابَهَه لأن النَّـــزْعَ لا يؤدي معنى الشّبَه إلا إذا كان مصدره نُزوعًا. كما لا يفيد قولنا "نَزَعَ نَزْعًا" معنى الرغبة والتشوق، لأن نَزَعَ لا يأتي بمعنى رَغِبَ إلا إذا كان مصدره نَزاعةً

ونِزاعًا ونُزوعًا. فثبت أن المصدر يحدّد معنى الفعل، حيث يبقى الفعل كما هو، وبتغير المصدر يتغير معناه. فلو قال الله تعالى مثلاً (والنازعات نَزْعًا) مكانَ قوله ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ لَتحدَّدَ معناه وانحصر فيما يفيده قولنا: نَزَعَ نَزْعًا. ولو قال تعالى مثلاً (والنازعاتِ نُزوعًا) لانحصر معناه فيما يفيده قولنا: نَزَع نُزوعًا. والحال ذاته بالنسبة إلى بقية المصادر مثل: نزاعًا ونَزاعة.

فثبت من هنا أنهم لا يذكرون المصدر بعد الفعل لمجرد التأكيد فحسب، بل لتحديد المعنى أيضًا. وإذا لم يذكروا المصدر من جذر الفعل نفسه، كما هو الحال في قوله تعالى ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ صلُحت جميع المعاني التي تدل عليها مصادرُ ذلك الفعل. فمثلاً لو قال الله تعالى (والنازعات نَزْعًا أو نُزوعًا أو نَزاعةً ونِزاعًا) لتحدَّدَ معنى هذه الآية وانحصر فيما يدل عليه ذلك المصدر المعين. ولكن قوله تعالى ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ يعني أن كل المعاني التي تدل عليها هذه المصادر يمكن أن تنطبق على هذه الآية. وبتعبير آخر قد نبّهنا الله تعالى بهذا الاستعمال أن نضع عند تفسير هذه الآية جميع هذه المعاني في الحسبان.

أما قول الله تعالى بعد ذلك ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾.. فهناك لفعلِ (نَشَطَ) مصدران: نشاطًا ونَشْطًا، وهذا يعني أنه باستخدام مصدر (نَشْطًا) قد حدّد الله معنى ﴿النَّاشِطَاتِ﴾ ولم يُطْلقه، فبيّن أن مفهوم ﴿النَّاشِطَاتِ﴾ ينحصر في المعنى الذي حدّده مصدرُ (نَشْطًا)، ولا ينطبق هنا المعنى الذي يشير إليه مصدر (نشاطًا).

وأبين الآن موقفي في تفسير هذه الآيات الخمس:

لقد بيّنتُ من قبل أن هناك معنى معقولاً عندي، وهو متفق عليه عند معظم الصحابة والتابعين وتبع التابعين وأكثر المفسرين، وهو أن هذه الآيات تتحدث عن الملائكة. بيد أن ثمة إشكالا وهو أن الضمائر هنا للمؤنث، مع أن الضمير الراجع على الملائكة يجب أن يكون مذكَّرًا، كما في قوله تعالى ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾(النحل:٥١). لم ينقل المفسرون عن الصحابة أي جواب على هذا الإشكال، بيد أنهم أجابوا عليه من عند أنفسهم وقالوا: صحيح أن الأصل هو الضمير المذكر للملائكة، ولكن قد ورد هنا الضمير المؤنث لأن المراد هنا طوائف

الملائكة وجماعاتها. وكل المفسرين والعلماء متفقون على هذا المعنى وهذا التأويل. وحيث إن معظم الصحابة والتابعين وتبع التابعين ثم المفسرين مجمعون على أن هذه الآيات تتحدث عن الملائكة، فلا بد أن يُعتبروا متفقين على السبب المذكور أعلاه وراء ورود الضمير المؤنث أيضًا. وما دام قد ثبت هذا فقد ثبت منه أيضًا أن الاعتقاد بأن ملاكًا واحدًا ينـــزل إلى الدنيا بجسد مادي لإنجاز كل المهامّ الموكولة إليه مناف للشريعة ومخالف للقرآن الكريم. ذلك أن عزرائيل إذا كان هو ذاته يذهب إلى كل شخص لقبض روحه، فما الحاجة إلى طائفة من الملائكة للغرض نفسه؟ إنما تمسّ الحاجة إلى أكثر من فرد إذا كان العمل فوق طاقة الفرد الواحد أو إذا كانت هناك مهمات عديدة تتطلب عدّة أفراد؛ فإما أن نقول إن عزرائيل غير قادر على قبض أرواح الناس ولذلك يصطحب معه طائفة من الملائكة، أو لا بد أن نقول إن جميع أفراد هذه الطائفة المكلَّفة بقبض الأرواح يقومون بقبض أرواح شتى الناس، كلٌّ بأسلوبه وطريقته. والأمر نفسه بالنسبة إلى المهام الأخرى. أما إذا اعتقدنا أن ملاكًا واحدًا ينـــزل إلى الدنيا ويقوم بجميع المهام، فهذا يخالف العقيدة الإسلامية؛ ذلك لسببين: أولهما أن الاعتقاد بهبوط الملاك في كل مكان هبوطًا ماديًّا اعتقادٌ مشابه للشرك؛ إذ نضطر لنعتقد بأن هذا الملاك الواحد يكون حاضرا وغائبا في وقت واحد في كل مكان، وبالتالي يصبح شريكا مع الله تعالى في صفة كونه محيطًا بكل شيء، وكونه موجودا على العرش والفرش في وقت واحد.

وثانيهما: أن الأجسام المادية هي التي تحتاج إلى الهبوط المادي، لكن الملائكة أجسام روحانية، والأرواح اللطيفة هي أكثر إنجازا لأعمالها بأشعتها منها بأجسامها المتنقلة، فإننا نرى في الدنيا أنه كلما كان الشيء لطيفًا أنجز عمله بأشعته بدلاً من تنقله.

إذًا فقد تبيّنَ من هذه الآيات – التي يتفق الجميع على أنها تتحدث عن الملائكة – أن كل طائفة من الملائكة مسخّرة للقيام بمهمّة ما، وأن نِطاق عملها محدود، وأن كل مهمة منوطة بجماعة من الملائكة يقوم بها كلهم مجتمعين وليس ملاكا واحدا فقط. فلا بد من الاعتراف، في هذه الحالة، أن لكل طائفة من الملائكة مركزا، وأن

أفرادها يظلون على اتصال بهذا المركز، وأنهم يرفعون تقريرهم إلى رئيسهم، لكن ليس على طريقة البشر، بل بما يتناسب مع عظمة الملائكة وحالهم. ✪

بعد هذه التوطئة أقوم بتفسير قوله تعالى ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾، مفضِّلاً المعنى الأول للنازعات أي الملائكة، إذ قد اتفق عليه معظم الصحابة والتابعين وتبع التابعين والمفسرين.

ومن معاني ﴿النَّازِعَاتِ﴾ الجماعات التي تقوم بعملية القلع حيث يقال نـــزَع الشيءَ عن مكانه: قلَعه. وعليه فالمراد من قوله تعالى ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ أننا نستشهد بجماعات الملائكة التي تنـــزع الأشياء من مكانها. وهذا المفهوم يلقي المزيد من الضوء على التمهيد الذي قمت به آنفًا، ويوضح أن الملائكة الذين يقومون بعملية النـــزع جماعات عديدة، لأن عملية النـــزع أيضا أقسام، وعلى كل قسم منها جماعةٌ من الملائكة. لقد تبين من ذلك أن وراء كل سبب في الدنيا ملاكٌ مسبِّبٌ، وحيث إن الأسباب لا تُعدّ ولا تُحصى، فالملائكة أيضا لا تعد ولا تحصى، ولذلك قال الله تعالى ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾(المدثر:٣٢) فكما أن هناك أسبابا دقيقة وراء كل عمل في الدنيا بحيث يستحيل على الإنسان أن يحيط بها، كذلك ليس بوسع الإنسان تقدير عدد الملائكة المسخرة على هذه الأسباب الخارجة عن إحاطة الإنسان.

والمراد من القَلْع المذكور هنا والذي تقوم به جماعات الملائكة هو قَلْع قلوبِ الكفار، الكافرةِ في الظاهر والراغبةِ في الإسلام في الحقيقة. والدليل على ذلك أن السورة السابقة تتحدث عن غلبة الإسلام وغلبة القرآن، وتقدِّمُ غلبتهما دليلا على القيامة. وإن ترتيب السور القرآنية يقتضي أن يبين الله تعالى الآن في هذه السورة كيف تتم هذه الغلبة وكيف يزدهر الإسلام وكيف يُنـــزَع الكفر من أساسه؛

✪ لدراسة المزيد عن الملائكة ونظامها ومهامّها راجِعْ كتاب المسيح الموعود عليه السلام باسم "توضيح المرام" ص ٦٦ الخزائن الروحانية المجلد ٣. (المفسر)

ولذلك استهلّ الله تعالى هذه السورة بقوله ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾، فبيّن أن السبيل إلى هذه الغلبة هو أن جماعات عديدة من الملائكة ستعمل على نـــزع القلوب المعادية للإسلام في الظاهر والمستيقنة بمحاسنه في الواقع من أرضها. الحق أن كثيرا من الكافرين كانوا في قلوبهم متبرمين من الكفر لأسباب مختلفة، فكان بعضهم متبرمًا من الكفر بسبب التعامل الوحشي الموجود بينهم، وبعضهم لسوء نظامهم، وبعضهم بسبب الظلم الموجود بينهم، وبعضهم لفقدان الشريعة بينهم. فكانوا في بستان الكفر كأشجار أصبحت جذورها ضعيفة، ولم تعُدْ منسجمة مع أرض الكفر؛ فلما عرض محمد ﷺ أحكام القرآن على الناس نشطت الملائكة المسخرة كلٌّ في نطاق الخُلق الخاص به، ليستثيروا المشاعر الطيبة في هؤلاء الكافرين. لم يكن في التعاليم الكاملة التي أتى الرسول ﷺ بها شركٌ بل التوحيد، ولا جهل بل العلم، ولا ظلم بل العدل، ولا وحشية بل الرأفة، ولا حرية مطلقة بل القوانين النافعة، ولا فوضى بل النظام. كان في تعاليمه ما يغطي كلّ ما تحتاجه الفطرة الإنسانية، ويُصلِح كل خطأ كان في الكفر. فكل ملاك مسخر على خُلق من الأخلاق بدأ يستثير المشاعرَ الطيبة في كل قلب كان داخل نطاق عمله ويحلّي ما فيه من خير، مما جعل عيوب الكفر تبدو له فظيعة جدا. مثلاً إن الملائكة المسخرة لإرساء وحدانية الله في العالم أخذت بعد نـــزول تعاليمه ﷻ تولّد في قلوب الكافرين الكارهين للشرك مزيدًا من الكراهية تجاهه، وتكشف لهم شناعته أكثر، كما قرَّبت إلى أفهامهم تعاليمَ الإسلام الطيّبة المتعلقة بنطاق عملهم، مما زادهم نفورًا من بستان الكفر وأرضه التي كانوا مقيمين فيها، فعلموا أن تلك الأرض لا تناسبهم، فاشتد حنينهم للوصول إلى البستان المحمدي. وبعد أن اتخذت الملائكة هذه الخطوة أعني أنها كرّهت إليهم الكفر وزادتهم رغبةً في الخير وحبًّا للإسلام اتخذت الخطوة التالية المذكورة في قوله تعالى ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ – يعني: نُقسِم بطوائف الملائكة التي تعقد عقدًا – أي أنها توصل هذه الأرواح، التي قطعوها من أراضي الكفر، بمحمد ﷺ. علمًا أن هذا لا يعني أن طوائف الملائكة التي قامت بعملية قَلْع هذه الأرواح من أرض الكفر لا تقوم بعملية "النشط" أي الوصل، بل المعنى أنها بعد عملية القلع

تبدأ بعملية الوصل، بمعنى أنها بعد تنفيرهم من الكفر تولد فيهم الإيمان وتوصلهم بمحمد ﷺ. وليست البيعة إلا عقدًا ووصلاً في الواقع، وقد قال النبي ﷺ نفسه: "من مات وليس في عنقه بيعةٌ، فقد مات ميتةً جاهليةً (مسلم: كتاب الإمارة)، وهذا هو ما يعنيه النشط أيضًا، أي عقد الحبل. إذًا، فالمراد من قوله تعالى ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ أن الملائكة تُرغِّبُ في الإسلام مَن يتبرأ من الكفر وتربطه بحبل بيعة النبي ﷺ.

ثم قال الله تعالى ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾.. أي نُقسم بجماعات الملائكة التي تسبح وتخرج في سباحتها بعيدًا. لقد بيّن الله تعالى هنا أن الملائكة لن تسعى لغلبة الإسلام في مكة فحسب، بل إنها بعد أن تضمّ الأرواحَ السعيدة من مكة إلى الإسلام تذهب خارجها لجلب الأرواح الأخرى المستعدة لقبول الإسلام. وكان من نتائج سباحة الملائكة وتحليقها إسلامُ أبي ذر الغفاري وقبيلته وإسلام الأنصار من المدينة وإسلام أبي موسى الأشعري وقبيلته من اليمن وإسلام سلمان من الفرس، وهكذا دبّر الله تعالى لانتشار الإسلام في مختلف الأقطار في وقت واحد.

ثم يقول الله تعالى ﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾.. أي تتولد في جماعات الملائكة روح التسابق والتنافس بعد أن تنجح في فتح قلوب المؤمنين من شتى الأقطار، فتسعى الملائكة من كل طبقة وفي كل قطر أن تسبق بعضها بعضا في هذا العمل. وبالفعل نرى من خلال أعمال المؤمنين الذين هم أظلال الملائكة أنهم كانوا يتنافسون في الخيرات برغبة عارمة، وكل طائفة وقبيلة منهم كانت تريد إحراز قصب السبق في الخيرات. هناك أمثلة كثيرة على ذلك في زمن الخليفة الأول والثاني للرسول ﷺ، بل نجد أمثلة عديدة على ذلك في العهد النبوي نفسه الذي كانت فيه جماعة المؤمنين صغيرة جدا. فرغم أن المهاجرين والأنصار كانوا يشتركون حتى في اللقمة الواحدة نفسها، وكانوا أشدّ تحابًّا من الأشقّاء، لكنهم كانوا يتنافسون في مجال خدمة الدين أشد التنافس. ثم إن الأنصار أنفسهم كانوا قبيلتين؛ الأوس والخزرج، ومع أنهم أصبحوا بالإسلام إخوانًا متناسين ما كان بينهم من حروب في الماضي، إلا أنهم كانوا شديدي التنافس فيما بينهم في سبيل الدين، حتى إن الرسول ﷺ لما أعلن

بينهم: مَن ذا الذي يكفيني أذى العدو – وكان يقصد كعب بن الأشرف العدو اللدود للإسلام – قامت جماعة من الأوس وقالوا: يا رسول الله، نحن نكفيك شرَّه. فوكّلهم بهذه المهمة، فقتلوا هذا العدو وفقًا للقواعد الحربية العامة، وليس ظلمًا (السيرة لابن هشام، الجزء الثالث، مقتل كعب بن الأشرف). علمًا أن أعداء الإسلام يعترضون أن أمْر النبي ﷺ بقتل كعب لم يكن مشروعًا، ولكن طعنهم يتنافى مع الأحداث التاريخية التي يضيق المجال عن الخوض في تفصيلها، ومن أراد الاستزادة فليقرأ تفسير قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ۞ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾(البقرة:٧٣-٧٤)، وذلك في المجلد الأول من هذا التفسير. فلما قُتل كعب تولدت في قلوب الخزرجيين مشاعر التنافس في الخير؛ فجاءوا النبي ﷺ قائلين: يا رسول الله، مُرْنا بمهمة مشابهة حتى لا نتأخر عن إخواننا الأوس، فوكّل إليهم الرسول ﷺ قتل أبي رافع. فذهبوا وقتلوه. (السيرة لابن هشام، الجزء الثالث، مقتل سلام بن أبي الحقيق).

ولم يكن التنافس بينهم في الخيرات على صعيد القبائل فقط، بل كان على صعيد العائلات أيضا؛ فمثلاً كانت عائلات عديدة من الأنصار تتناوب في حراسة النبي ﷺ ليلاً، وكانوا يحرسونه بدون سلاح عادةً، وفي إحدى الليالي سمع النبي ﷺ صوت سلاح، فسأل عن الصوت، فقيل له إن بني فلان يحرسونه مسلحين، فسُرّ النبي ﷺ بروح التنافس بينهم. (البخاري، كتاب الجهاد، باب الحراسة في الغزو)

ثم إن هذا التنافس في الخيرات كان بين الفقراء والأغنياء أيضًا، فذات مرة جاء الفقراء إلى النبي ﷺ وقالوا: يا رسول الله، إن إخواننا الأغنياء ذهبوا بالدرجات، فهم يزكّون أموالهم ويُخرجون صدقات أخرى ويعملون أعمال الخير الأخرى، ولكنا محرومون منها بسبب فقرنا، فدُلَّنا على عمل يسدّ هذا النقص. فقال النبي ﷺ: عليكم بالتسبيح ٣٣ مرة فالتحميد ٣٣ مرة والتكبير ٣٤ مرة بعد كل صلاة. وبعد أيام رجع هؤلاء إلى النبي ﷺ وقالوا يا رسول الله، لقد علِم إخواننا الأثرياء-

بطريق أو بآخر- بما علّمتنا، فيقومون بالتسبيح والتحميد والتكبير بعد الصلاة، فامنَعْهم من ذلك. فقال ﷺ: كيف أمنعهم من الخير؟ (مسلم، كتاب المساجد).

ثم لم يكن رجالهم وحدهم متنافسين في الخيرات، بل نرى نساءهم متحليات بروح التنافس هذه؛ فقد ورد أنهن ذهبن مرة إلى النبي ﷺ وقلن: يا رسول الله، إنك تعظ الرجال فقط، ولا تعظ في النساء. فجعل الرسول ﷺ يومًا لوعظهن. (البخاري: كتاب العلم)

إذًا، ما كان المسلمون يتهربون من العمل في سبيل الدين قائلين: الحمد لله لم تقع هذه المسؤولية عليّ، بل على غيري، بل كان كلّ واحد منهم متحَمسًا ليحمل الأعباء أكثر من غيره. وهذا هو سرُّ رقيّ الأمم. إذا حاول أبناء أمّة نقل الأعباء والمسؤوليات إلى الآخرين هلكت، أما إذا كان كل فرد منها تَوّاقًا للخدمة أكثر من غيره ازدهرت باستمرار. وكان الصحابة - رضوان الله عليهم - متحلين بهذه الميزة، مما يدل على أن الملائكة التي كانت تحثّهم على الخير متحلية بهذا الحماس أيضًا. وقد تجلى هذا الحماس في المسلمين كثيرا عند انتشار الإسلام حتى أن التاريخ يذكر أن بعض القبائل ضحّت بكل أبنائها في الحروب الإسلامية في عهد الخليفتين الأول والثاني، و لم يريدوا أن يشاركهم غيرهم من المسلمين في شرف هذه التضحية والشهادة في سبيل الإسلام. كانوا يسمحون للآخرين أن يشاركوهم في الغنائم والعز المادي، لكن فيما يتعلق بالتضحيات في سبيل الأمة فكانوا يتمنون دائما أن يتعاطوا كأس الموت دون الآخرين. وهذا موضوع طويل لا مجال لتفصيله هنا، بيد أنه مما لا غبار عليه أن هذا الدليل البين الساطع على صدق قوله تعالى ﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾ لموجود في صفحات التاريخ.

أما قوله تعالى ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ فبيّن فيه أن الملائكة بعد فراغها من عملية نفخ روح التسابق تصبح مدبرات للأمر، أي ستصبح الأرض تحت حكم الملائكة؛ ذلك أن الملائكة يحثّون الناس على الخير، فإذا خضعت الأرض لحكم الصالحين الذين يديرون شؤون القوم، فتكون النتيجة أن الملائكة سيكونون حاكمين على الدنيا، وبتعبير آخر: إن ملكوت الله يقوم في الأرض، لأن الملائكة ﴿يَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾

(النحل:٥١). إذًا، ستحكم الملائكة العالم من خلال حُكم الصالحين المطيعين للملائكة. ومن خلال حُكم الملائكة المطيعين لله تعالى في كل شيء سيقوم حُكم الله على الأرض. وبكلمات أخرى فإن الدعاء الذي قام به المسيح عليه السلام قائلا: "أَبَانَا الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ، لِيَتَقَدَّسِ اسْمُكَ. لِيَأْتِ مَلَكُوتُكَ، لِتَكُنْ مَشِيئَتُكَ كَمَا فِي السَّمَاءِ كَذلِكَ عَلَى الأَرْضِ" (مَتَّى ٦: ٩-١٠)، والذي لم يتحقق على يده عليه السلام لأن أُمّته لم تنَل المُلك زمن صلاحهم، بل نالوه بعد أن صاروا مشركين، قد تحقق ذلك الدعاء بواسطة النبي محمد ﷺ، لأن أتباعه نالوا الملك وقلوبهم تحت تصرُّف الملائكة، فكانوا يفعلون ما يؤمرون من قبل الملائكة التي تأمرهم بما يريده الله ويأمرها به. وهكذا لم يعُدْ ملكوت الله في زمنهم في السماء فحسب، بل قام على الأرض أيضًا.

ما أروعَ هذه النبوءةَ! وما أعظمَها! حتى إن الأعداء يقرّون مضطرين بأن حُكم خلفاء الإسلام لم يكن حُكم بشر، بل كان حُكم أخلاق. ومصطلح "حُكم الأخلاق" لا يُستعمل عند غير المسلمين إلا للحُكم الذي يُسمَّى في المصطلح الإسلامي حكم الملائكة. وما لنا أن لا نُسمّي حُكْمَهم حُكم الملائكة وقد اعتُبر يوسف عليه السلام ملَكًا بحسب قوله تعالى ﴿إِنْ هَذَا إِلا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾(يوسف:٣٢).

هناك أمران ضمنيان يمكن استنتاجهما من هذه الآيات كدروس قانونية، وهي كالآتي:

الدرس الأول: لقد أشار الله تعالى بقوله ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾ إلى ازدهار الإسلام.. أي أن دَعْوته ستصل منذ البداية إلى مناطق بعيدة. وهذا إشارة إلى أن دعوة الإسلام ذات جاذبية عالمية ولا تختص بدولة أو أُمّة. إن جذورها ليست في أرض التقاليد القومية أو القطرية، بل في أرض الأخلاق والمشاعر الإنسانية، ولذلك ستنتشر بسرعة في أقطار بعيدة، وستجتذب كثيرًا من الشعوب والأمم بسرعة وإن قبلها في البداية قلّةٌ من الناس.

لقد بيّن الله تعالى هنا إحدى فضائل الإسلام التي يضيق المجال عن الخوض فيها، كما نبه إلى أمر هامّ لا بد منه لجميع الحركات التي تريد أن تكون عالمية، ألا وهو

أنه لا يمكن لأحد أن يأتي بدعوة عالمية ما لم يترفع عن النـــزعة العنصرية. إن الهند مثلاً بلد من بلدان العالم، وليست العالم كله، ومع ذلك لم يتمكن زعماؤها السياسيون بعد من خَلْقِ جوٍّ وطني، ذلك لأنهم قد جذّروا حركاتهم السياسية في أرض النـــزعة القَبَليّة نتيجة ضغط قَبَليٍّ أو مصالح عائلية، ولذلك تأخذ شجرة حركاتهم في الجفاف جزئيًّا أو كليًّا بُعيد نموّها، ولا تتحول إلى دوحة تهيّئ الظلال للبلاد كلها. بينما نجد الإسلام – وهو لا يزال في مكة وفي زمن العصبية القَبليّة الشديدة – قد اجتذب من المدينة قبيلتي الأوس والخزرج المتحاربتين، وأخضع اليمن الذي كان يدعي تفوقه السياسي، واجتذب من اليهود عبد الله بن سلام، وسلمان من فارس – بيد أنهما كانا ممثِّلَين لقوميهما الذين طاروا إلى الإسلام كالفراشات. وليس ذلك إلا أن الإسلام لم يكن كماءٍ راكدٍ في بِركة، بل كان كمثل غيث يمطر على تلٍّ عالٍ ويصل إلى أماكن بعيدة ولا يتجمع في مكان واحد. لم يكن حَمَلَةُ الإسلام خدّامَ أُمّتهم فقط، بل كانوا خدام الإنسانية جمعاء. لقد علِم كلٌّ منهم أنه لا يرث هذه الثروة وحده، بل فيها نصيب لأهل البلدان الأخرى، فخرج كل واحد منهم بهذا التعليم في مختلف الأنحاء والأقطار، فانتشر الإسلام في العالم كله. لو كانت تعاليمه متأثرة بالتقاليد القومية والقطرية، أو لو كان أتباعُه يريدون تفوُّقَ بلدٍ معيّن لما انتشر الإسلام هكذا أبدًا. واليوم أيضًا لن تحقِّق أمّةٌ غايتها إلا إذا وسّعتْ نطاق تعاليمها وأخلاقها كما فعل الإسلام.

أما الدرس الثاني فهو أن الله تعالى قد بيّن هنا أن تعاليم الإسلام لا تتسامى عن حدود الأقطار والبلاد فحسب، بل هي واسعة من حيث الطبائع، وقد أُشير إلى ذلك بكلمات النازعات، والناشطات والسابحات التي هي صيغة الجمع.. أي أن هنالك طوائف للملائكة تقوم بهذه المهام. بمعنى أن تعاليمه لا تخاطب أصحاب فطرة واحدة، بل كلَّ فطرة وكل طبيعة وكل مزاج. إن المجال يضيق عن الخوض في تفصيل هذا الموضوع، غير أنكم لو أخذتم الأمور البارزة التالية في الاعتبار استطعتم استيعاب الأمر، أعني أن الإسلام قد تناول بالبيان كل القضايا الهامة من سياسة وتمدُّن واجتماع وتجارة واقتصاد، وأصدر الأحكام العادلة للسيد والخادم

والزوجين والآباء والأولاد والأخ وأخيه والمعلم والتلميذ والغني والفقير والملك والرعية والصديق وصديقه جميعا. كما أعطى تعليمات تشفي غليلَ أصحاب الطبائع المختلفة من عابد وجندي وقاضٍ ومحبّ للجهاد ومعجب بالعدل ومولع بطلب العلم وراغب في الصدقات ومحبّ للنظام. فما مِن طبع من الطبائع الإنسانية إلا وقد عمل الإسلام على تطويره. فإذا كان الله تعالى قد أكد تفوُّقَ الإسلام من جهةٍ مبيّنًا أنه قد اهتم بكل بلد وبكل طبع إنساني حيث وكَّلَ لكل بلد ولكل طبيعةٍ طائفة من الملائكة لنشر الإسلام وتبليغه، فإنه من جهة أخرى قد نبّه إلى أن الحركات التي تريد أن تصبح عالمية لا بد لها من أن تأخذ كل قوم وكل طبع إنساني في الاعتبار – إلى حدٍّ لا يعيق هدف الأمة الأسمى – بل لا بد لها من تنمية كل ما يوجد في أي فرد من كفاءة خاصة من أجل رقي الأُمة.

وأبين الآن تفسيرًا آخر لهذه الآيات باعتبار الطوائف طوائف جماعات الناس لا جماعات الملائكة. علمًا أن النـــزع يعني الرماية أيضا، والنشط يعني عقد الحبل، والسبح يعني السباحة أو الخروج بعيدا، والسباق يعني التنافس والتغلب، وتدبير الأمر يعني إدارة نظام الحُكم. وعليه فتُعتبر هذه الآيات إشارة إلى الفتوحات الإسلامية. كانت سورة "النبأ" قد أشارت في آخر آياتها إلى يوم الفصل محذِّرةً من اليوم الذي يصبح فيه الإسلام غالبا حتى يقول الكافر ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾. أما الآن في سورة النازعات فقد فصّل الله تعالى هذا الموضوع وبيّن كيف تكون بداية غلبة الإسلام وكيف تبلغ ذروتها.

يقول الله تعالى ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾.. أي نقدّم على صدق دعوانا جماعات رماة المسلمين الذين يرمون السهام إغراقًا، بمعنى أنهم سيقومون بالرماية بأقصى ما أُوتوا من قوة غير مكترثين لراحتهم. هؤلاء الرماة هم جماعات الصحابة الذين كانوا عند نـــزول هذه السورة بضعة أفراد وكانوا أقل عددًا من أن يسمَّوا طائفة أو جماعة، وكانوا عرضة للاضطهاد غير قادرين على أن يرفعوا أيديهم إلى عدوهم، ناهيك أن يرفعوا عليهم سيفًا؛ ومع ذلك يعلن الله تعالى أن يوم غلبتهم – الذي يقول فيه الكافرون ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ – لآتٍ، حيث ننشر الإسلام خارج مكة،

فتجتمع قبائل أخرى تحت رايته، وعندها نسمح للمسلمين بالحرب، فيقومون بواجب الجهاد أداءً غير مسبوق؛ ذلك لأن الإغراق يعني بلوغ المرء غاية الحد وأقصى درجة في العمل.

ما أروع ما تحققت به هذه النبوءة فيما بعد! حيث خرج الإسلام من مكة وبلغ المدينة، فصار المسلمون من طائفة إلى طائفتين: المهاجرين والأنصار. وكان مسلمو المدينة قبيلتي الأوس والخزرج اللتين كان بينهما عداء شديد قبل الإسلام، وهكذا صار المسلمون في الواقع ثلاث فئات، فصحَّ أن تُطلَق عليهم صيغة الجمع: "النازعات". والواقع أنه لما أُذن للمسلمين بالقتال كانوا ثلاث فئات فاستحقوا بجدارة أن يُسمّوا "النازعات والناشطات". إذًا، فلما اجتمعت هذه الفئات الثلاث تحت راية الإسلام حان موعد الإعلان الرباني ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۞ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۞ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (الحج:٤٠-٤٢).. أي يُسمَح من الله تعالى بالقتال للذين تُسلَّط عليهم الحرب. وقد أُذن لهم بذلك لأنهم قد ظُلموا. وقد أُذن لهم بالقتال لأن الله قادر على نصرهم. لو كانت الحرب تفنيهم لم يؤذَن لهم بها. فإذْنُ الله لهم بالحرب دليل على أن الله يضمن لهم النصر. إنهم قوم قد أُخرجوا من ديارهم، وليس ذنبهم إلا أنهم قالوا ربنا الله. ولو لم يدفع الله شرَّ بعض الناس عن بعض لدُمّرت معابد اليهود والنصارى والمسلمين التي يُذكر فيها اسم الله كثيرا. ولا شك أن الله تعالى سينصر مَن يهبُّ لنصرة دينه، إن الله قوي غالب. وإن صفة هؤلاء القوم الذين نريد أن نعطيهم المُلك الآن أنهم لو أُعطوا المُلك أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، ولن يسعوا لتوطيد حُكمهم في الدنيا بل حُكم الله تعالى.

وفي غزوة بدر تحققت هذه النبوءة الواردة في قوله تعالى ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۞ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا....﴾، حيث أُذن للصحابة بالقتال فخرجوا وتصدَّوا للعدو الذي كان يزيد عليهم ثلاثة أضعاف. وقد اعتمد المقاتلون في هذه المعركة على السهام غالبًا؛ لذلك قال الله تعالى ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾(الأنفال:١٨). لا شك أنها إشارة إلى حفنة من الحصى التي رماها الرسول ﷺ في وجوه الكفار، ولكنها تشير أيضا إلى الرياح التي جرت بأمر الله تعالى من وراء المسلمين بعد أن أطلق النبي ﷺ هذه الحفنة، مما جعل سهام المسلمين تنطلق بقوة وتصيب الهدف، بينما سقطت سهام الكفار في الطريق أو فقدت قوتها نتيجة ضغط الرياح المعاكسة. (شرح المواهب اللدنية للزرقاني، ذكر غزوة بدر)

ومما يدل على كون المسلمين ﴿غَرْقًا﴾ في هدفهم – أي أنهم لن يبرحوا عن القتال ولن ينسحبوا منه مهما حدث – ما حكاه عمير بن وهب أحد زعماء الكافرين الذي بعثوه ليقدّر قوة المسلمين يوم بدر، فلما رجع إليهم قال: إنهم قرابة ثلاثمائة شخص، ولكن يا قوم لا تحاربوهم رغم قلتهم، فقد "رأيتُ البلايا (النُوق) تحمل المنايا". (السيرة لابن هشام، ذكر غزوة بدر الكبرى).. أي أن وجوههم تنبئ أنهم قد حضروا ليموتوا، لا أن يرجعوا أحياء. فخافت قريش بما قاله ابن وهب، إلا أن أبا جهل تمكّنَ من إيقاد نيران الحرب.

والشهادة الثانية على كون المسلمين ﴿غَرْقًا﴾ في القتال ما حصل بين أبي بكر وابنه عبد الرحمن، فبعد معركة بدر بفترة قصيرة أسلمَ الأخير وهاجر إلى المدينة، وبينما هو يتجاذب أطراف الحديث عن وقائع بدر قال لأبيه: يا أبت، لقد كنتَ تحت ضربة سيفي مرارًا أثناء القتال، ولكني امتنعت عن قتلك في كل مرة، لكونك أبي. فقال له أبو بكر رضي الله عنه: أما أنا فلو تمكنتُ منك لقتلتُك و لم أتردّد لأنك ابني. (الروضُ الأُنُفُ: غزوة بدر). هذا بالرغم من أن الآباء هم أشدُّ حبًّا للأولاد من حب الأولاد لهم عادة. إنها روح الإسلام التي قد جعلت كل أب وكل ابن وكل زوج وكل زوجة لا يعبأ بأي شيء يصدّه عن سبيل الحق. وثبت من هذه الشهادات التي هي من قِبل المؤمنين والكفار جميعًا أن جماعات الصحابة كانت مصداقا لقوله تعالى

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾. لقد عاشوا في البداية مسالمين متمسكين بأهداب الصبر إلى أقصى حدّ، وعندما أصبحوا ﴿النَّازِعَاتِ﴾ أخذوا في أيديهم السهام وأصبحوا ﴿غَرْقًا﴾ في هذا العمل، بحيث لم يضعوا القوس من أيديهم إلا بعدما فاضت روحهم من جسدهم. اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد وعلى أصحاب محمد وبارِكْ وسلّم إنك حميد مجيد.

وكان نتيجة إخلاصهم أن الكافرين رأوا بأم أعينهم وفي هذه الدنيا كيف تحقق قول الله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾. كان أبو جهل رئيس مكة وقائد جيشها يوم بدر. يقول عبد الرحمن بن عوف – أحد قادة المسلمين المحنكين – أنه فيما كان أبو جهل يصفّ جنوده في بدر، نظرت يمنة ويسرة، فإذا بصبيّين أنصاريين يبلغان الخامسة عشرة، فقلت في نفسي: لن أستطيع اليوم شفاء نفسي أثناء القتال، لأن معي – لسوء حظي – صبيين من الأنصار عديمي الخبرة بالقتال. وبينما أنا في ذلك حتى غمزني الذي على يميني، فقال: يا عمّ ادْنُ مني لأني لا أريد أن يسمع صاحبي ما سأقول في أذنك. فاقتربت منه فقال: عمّ، أَرِني أبا جهل الذي آذى رسول الله ﷺ أذى شديدا، فإني أريد قتله؟ وما أن أنهى كلامه، حتى غمزني الصبي الذي على يساري، فقال: يا عم، من هو أبو جهل الذي كان يؤذي رسول الله ﷺ أذى شديدا، فإني أحب قتله اليوم؟ ويقول عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: كنت مقاتلاً محنّكًا، إلا أني لم أتصور أني قادر على قتل قائد جيش الكافرين أبي جهل الذي كان يقف وسط حلقة من جنوده الخبراء بفنون الحرب. فأشرتُ لهما بيدي وقلت: هو ذلك الشخص المختفي في الخوذة والدرعِ والذي يحرسه مقاتلون أشداء بسيوفهم. وكنت أعني بذلك أن قتلهما هذا الرجلَ دونه خرط القتاد. ولكن لم تكد يدي تهبط بعد الإشارة حتى انقض الصبيان نحو أبي جهل انقضاضَ الصقر على العصفور وأخذا يشقّان صفوف الكافرين. وكان عكرمة المقاتل المحنّك المغوار يحرس أباه أبا جهل من أمامه، ولم يدُر بخلده أو غيرِه قَصْدَ الصبيين اللذين اقتربا بسرعة بالغة من الحراس الشاهرين سيوفهم، ومع ذلك لم يستطيعوا أن ينـــزلوا سيوفهما قبل فوات الأوان، إلا واحدا منهم الذي قطع يد أحد الصبيينِ، ولكن

الذي يرى بذل النفس رخيصًا لا يعيقه قطعُ يده عن قصده، فما زال الصبيان يشدّان على الحراس كالصخرة المتدحرجة من أعلى الجبل حتى انقضّا على أبي جهل بسيفيهما، فوقع صريعًا قبل أن تبدأ الحرب فعلاً. ويقول عبد الله بن مسعود ﷺ: وجدتُ أبا جهل في حالة الغرغرة بعد انتهاء القتال، فقلت له: كيف حالك؟ قال: أموت بحسرة. ليس القتل عارًا، ولكن لو غيرُ أكّارٍ قتَلني، يعني ليتني لم أُقتَل بيد صبيين من الأنصار المزارعين بل قتَلني غيرهما؛ ذلك لأن أهل مكة كانوا يحتقرون أهل المدينة الذين كانت حرفتهم الزراعة. ثم قال أبو جهل لابن مسعود: إني في أذى شديد، فاعملْ لي معروفًا واقتلْني بضربة سيف، ولكن اقطَعْ عنقي طويلةً؛ لأن قطع العنق طويلةً من علامات القائد. فرضي ابن مسعود ﷺ بقتله ليخلصه من العذاب، ولكنه قطع عنقه قريبا من الذقن. وهذا يعني أن رغبته الأخيرة أيضًا لم تتحقق. (البخاري، كتاب المغازي)

فما أروعَ وما أوضحَ ما تحققت به هذه النبوءة الواردة في قوله تعالى ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾!

ولام التعريف في لفظ ﴿الْكَافِرُ﴾ قد تكون للعهد، وقد تكون للاستغراق أي للكمال.. أي الكافر الذي هو كفر متجسد، وهو أبو جهل، فالمراد أن هذا الكافر سيقول عندها: ﴿لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾. فكِّرْ في الأحداث جيدًا لتعلم ما إذا كان أبو جهل قد صاح يومئذ: ﴿لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ أم لا. لقد رأى بأم عينه الخزي والهوان، محققًا هذه النبوءة الواردة في سورة (النبأ) بكل جلاء ووضوح.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾. لقد أجاب الله تعالى في الآية السابقة ما إذا كان المسلمون سيُهزَمون في هذه الحروب، حيث بيّن أنهم إنما يخوضونها لكي يضحّوا بأرواحهم في سبيل الإسلام بغض النظر عن الفتح أو الهزيمة، أما الآن فردّ الله على السؤال القائل: ألا يُهلَك هؤلاء المسلمون القلائل ويُدمَّرون بإلقاء أنفسهم في خطر الحرب؟ فبيّن أنهم لن يهلكوا أبدًا، بل سينتصرون فيها حتى إنهم سيوثقون أعداءهم بالحبال ويأسرونهم. وبالفعل، فقد وقع كثير من الكفار أسرى في أيدي المسلمين يوم بدر وأُوثقوا بالحبال. (الزرقاني، غزوة بدر)

أما قول الله تعالى ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾ فهو إشارة إلى حنكتهم الحربية، لأن المرء إذا مهر في عمل قيل هو يسبح فيه، لأنه يقوم به بسهولة ويسر. وهذا ما رأيناه في الصحابة، حيث مهروا في فنون القتال حتى انتصروا على جنود قيصر وكسرى النظاميين الذين كانت عندهم خبرة قتالية عالية.

وقد يكون قوله تعالى ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾ إشارة إلى أن حروب المسلمين سيتسع نطاقها فتصل بعيدًا عن المدينة. فإن السابح سبحًا يذهب عن ضفة النهر بعيدًا، كذلك يبدأ المسلمون حروبهم من المدينة، ثم لا يزالون يدفعون العدو ويخرجون في مطاردته بعيدا جدا. وبالفعل وقعت حرب بعد حرب حتى انتشرت في أطراف الجزيرة.

ثم يقول الله تعالى ﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾.. أي نقدّم، كشهادة، جماعات المسلمين التي تتسابق فيما بينها. تصاب الشعوب بالإرهاق عادة عندما تتوالى الحروب طويلاً وتتسع رقعتها، ولذلك أخبر الله تعالى هنا أنه لا تزال بين المسلمين جماعات متحلية بروح الفداء والتضحية بحيث لن يرهقها طول الحروب واتساعها، بل هذا سيرفع من معنوياتهم ويزيدهم إيمانًا كما لو أن التضحية بالنفس عندهم لعبة يتسابقون فيها. فكما نرى فريقَي الكرة أو الكريكيت يتسابقون أثناء اللعب، كذلك سيظل هؤلاء يتنافسون في بذل أرواحهم، إلى أن يأتي الزمن الذي يتحقق فيه قوله تعالى ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾.. أي أن الله تعالى سيضع زمام الحكم في أيديهم.

والحق أن الأمم التي تتحلى بالمزايا المذكورة أعلاه هي التي تأخذ زمام الحكم في يدها، ولا تقدر قوة في العالم على الحيلولة دون ذلك. إن انهماك أفراد الأمة في أعمالهم ضد عدوها، وشعورهم بالمتعة والسهولة في أداء مهامهم، ثم تَحلِّيهم بروح التنافس في التضحية لأمتهم، هو من عوامل تفوُّق الأمة وغلبتها. وهذا ما أنبأ الله به عن المسلمين في هذه الآيات، وهذا هو المشهد الذي نراه في حياة الصحابة.

وهناك موضوع ثالث تتحدث عنه هذه الآيات وهو الكفاءة الروحانية، يقال: نَزَع ينزِع نُزوعًا عن كذا: كَفَّ عنه. ونشَط الدلوَ من البئر: نَزَعها وانتشلَها بلا بَكْرة.

وكما ذكرت من قبل، فإن القرآن الكريم قد ذكر موضوع غلبة الإسلام وموضوع يوم القيامة معًا، مخاطبًا الكفار أنكم تنكرون وجود الأمرين كليهما، ولكنهما واقعان لا محالة، وكل منهما سيكون دليلا على الآخر؛ وهذا هو موضوع سورة (النبأ). أما سورة (النازعات) فقد رد الله فيها على اعتراض يثيره الكافرون، ذلك لأن الفطرة الإنسانية تقول: لنفترض أن الله تعالى سينجز للمسلمين ما وعدهم، ولكن أين آثار ذلك، إن الله تعالى إذا أراد فعل شيء ظهرت آثار وشواهد تدل على مشيئته تعالى. فمثلا لا يسع أحدًا أن ينكر أن الله تعالى يخلق الولد، ولكنه تعالى قد جعل لذلك قابلية في الرجل وزوجته. فعندما يتم الزواج بين رجل وامرأة نرى بينهما نوعًا من الرغبة. وإذا اختليا ازددنا يقينًا بأن هذه بداية ولادة المولود. ثم بعد أيام نرى لذلك آثارًا ظاهرة، فيقول الجميع: الآن سيولد لهما المولود. لا شك أنه سيولد بعد مدة، ولكن الجميع يدرك أنه سيولد حتمًا لأن آثاره قد ظهرت. أو خذوا الطالب مثلاً فإنه إذا داوَم في الكلية علمنا أنه سيفوز بشهادته العلمية. أو إذا أراد شخص ثري بناءَ قصر علمنا أنه سيبنيه حتمًا إذ نرى آثار ذلك لأنه يملك المال والإرادة والبنّائين.

فثبت من هنا أن الناس في الدنيا لا يوقنون بشيء ما لم يروا آثارًا له. وبحسب هذا المبدأ كان الكافرون يقولون للمسلمين: تدّعون بمجيء يوم القيامة، وحين نسألكم الدليل عليها تقولون: سينتصر الإسلام وسينمحي الكفر وستكون غلبة الإسلام دليلاً على مجيء يوم القيامة. مع أن غلبة الإسلام التي تقدمونها دليلا على القيامة هي نفسها بحاجة إلى دليل، إذ لا نرى آثارا لغلبته. فهناك حفنة من الناس الذين اعتنقوا الإسلام ولا نرى فيهم أي آثار لغلبتهم على العالم كله. يتغلب الناس في الدنيا بقوة العلم، ولكن لا يوجد بين هؤلاء عالم واحد – علمًا أن الكفار لا يعنون من العلم هنا علمًا وإنما يقصدون الكهانةَ وما شابهها – ويتغلب الناس في الدنيا بقوتهم الصناعية، لكن لا نجد في المسلمين أصحاب الصنعة أيضًا، كما ليس عندهم قادة أبطال حتى نقول إنهم سيفتحون العالم للإسلام، وليس عندهم قوة ولا مَنعة حتى يقال إن الناس يتبعونهم خوفًا من بطشهم، وإنما هم حفنة من الفقراء الذين لا

كفاءة عندهم ولا قدرة حتى يُثبِتوا وجودهم في المستقبل وإن لم يكونوا قادرين اليوم على ذلك. هل أداء الصلوات والنطق بالشهادة دليل على غلبتهم؟ كلا بل لا بد للغلبة في الدنيا من كفاءات معينة، ولا نجدها فيهم، بل لا نجد فيهم آثارها أيضًا، وبتعبير آخر لا توجد هذه الكفاءات فيهم لا بالفعل ولا بالقوة. فمثلا، إذا بنى أحد مصنعًا، قلنا إنه سيكسب منه الملايين غدًا وإن لم يكسبها اليوم. فما دام المسلمون غير مؤهلين لا واقعًا ولا مستقبلاً فكيف تكون غلبتهم الموهومة في المستقبل دليلا على وجود القيامة؟ هذا هو الاعتراض الذي قد نشأ بسبب ما جاء في سورة (النبأ)، فردَّ الله تعالى عليه هنا في السورة قيد التفسير، فقال ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾.. أي أيها الكافرون، تزدرون المؤمنين اليوم ولا ترون فيهم أي كفاءة، وتجدونهم متخلفين عن باقي القوم وتعتبرونهم أقلهم علمًا وخبرة وحرفة ومهارة وصناعة، وأكثرهم هوانًا وترونهم لا يصلحون لشيء، ناهيك أن يصلحوا لسيادة العالم والحُكم على الناس. ولكن تذكروا أن الله تعالى سيزوّدهم بما يضمن النجاح والسيادة، وسترون كيف يؤكدون بعملهم ما زُوّدوا به من كفاءات وقدرات. تعتبرونهم غير صالحين لأي شيء، ولكننا نقدم أمامكم خمس خصال لهم كدليل على كفاءاتهم التي تتجلى آثارها فيهم بالتدريج، وكل أمة تتوافر فيها هذه الخصال لا تلقى الهزيمة أبدا.

إن أكبر ما تطعنون به فيهم أنهم أقلّ الناس علمًا ومالاً وقوةً وخبرةً حربية، بل هم يفتقرون إليها أصلاً. والحق أن العلم والمال والقوة والخبرة الحربية وغيرها لا تنزل من السماء، كما لا تضمن للإنسان الغلبة حتمًا، بل إن الإنسان بحاجة إلى هذه الخصال الخمس للغلبة على الآخرين. ولو أمعنتم النظر لتبيّنَ لكم أن المسلمين متحلون فعلاً بهذه الخصال الخمس التي تتجلى فيهم الآن أكثر فأكثر، وفيها يكمن سرُّ نجاحهم. ولذلك قال الله تعالى ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾. والنزع يمكن تفسيره بمفهومين: أوّلُهما الكفّ عن الشيء، وثانيهما الحنين إلى الشيء؛ يقال: نزَع عن كذا نُزوعًا: كفّ عنه، ويقال: نزَع إلى الشيء نِزاعًا: ذهب إليه، ونزَع

إلى الشيء: اشتهاه، ونـــزَع إلى أهله: اشتاق (الأقرب). ولو وضعنا هذين المفهومين في الحسبان علمنا أنه لا بد لنهضة الأمة من الكفاءات التالية:

أوّلها: الصبر.. أي يجب أن تكون فيهم ميزة الامتناع عما مُنعوا منه، حتى يكفّوا أنفسهم عن بواعث المساوئ والهلاك، ويتجنبوا الوقوع فيها. والأُمة التي تتحلّى بهذه الميزة تنتصر، والتي تفتقدها تنهزم. إن الناس سواسية فيما يتعلق بامتلاك العين والأنف والقلب والعقل وما إلى ذلك، والفرق الوحيد أن بعضهم يمتنعون عن المساوئ كلما تطلب الأمر فينتصرون، والآخرون لا يقدرون على منع أنفسهم من اقترافها، فينهزمون. وثانيها هو الولع الشديد للفوز بكل شيء؛ فالأمة التي تتحلى بهاتين الميزتين، الصبر والولَع الشديد، تصبح غالبة في الدنيا حتمًا، لأنهما أساس الرقي. لماذا يصبح الطبيب الكبير أو المهندس الكبير أو السياسي الكبير ذائع الصيت؟ إنما سببه حبّ الطبيب لمهنته، واشتياق المهندس لعمله، وتفكير السياسي باستمرار فيما فيه ازدهار بلده. خذوا مثلا السيد غاندي العاكف على خدمة بلده ليل نهار، وليس الفرق بينه وبين غيره من الناس إلا انهماكه في عمله بكل ما أوتي من قوة، أما الآخرون فلا يأبهون لذلك. لا فرق بينه وبينهم من حيث الأعضاء والجوارح، فعندهم عينان وأذنان وأنف وفم كما هي عند السيد غاندي، ولكن ما يميزه عنهم أنهم لا يبرحون منغمسين في لعب القمار أو مشاهدة السينما أو في سماع الأغاني، بينما يظل منهمكا في عمله. ولو اهتم هؤلاء بما يهتم به غاندي لعُدّوا اليوم من أصحاب المنجزات العظيمة. أو خذوا مثلاً طبيبين يُشفى على يد أحدهما المرضى بكثرة، والآخر ليس ناجحًا مثله في مهنته، فما السبب في ذلك؟ إنما سببه أن الأول ظلّ منهمكا في دراسة الطب ومداواة الناس بولع وشوق، والآخر لم يبد رغبة في ذلك. إذًا، فلا بد للرقي من أن يمتنع الإنسان عن المساوئ إذا مُنع منها، وأن يكون شديد الحرص على كل ما هو نافع ومفيد.

لقد نبّه الله تعالى الكافرين بقوله ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ إلى توافر هاتين الميزتين في المسلمين، فإنهم – أولاً – يتحاشوْن كل ما يعيقهم عن الرقيّ، وهذا هو الفرق الكبير بين المسلمين وبينكم أيها الكافرون، فتعلمون ما هي السيئات ولا تتفادوْنها،

أما المسلمون فإذا علموا بالسيئة لم يقربوها أبدًا. فأيُّ الفريقين أحقّ بالرقي والغلبة؟ وعلى سبيل المثال تعلمون أضرار الخمر والميسر ثم لا تتورعون عن شرب الخمر ولعب الميسر، أما المسلمون فيوقنون بأضرارهما، فلا يقتربون من أي منهما، وهذا دليل على أن المسلمين مؤهلون للتقدم والازدهار، ولكنكم لستم أهلاً له. وتعترفون، مثل المسلمين، بفضل الصدق ومع ذلك تكذبون، والمسلمون يصدقون القول. وتعرفون أن على المرء أن لا يضيع وقته، ومع هذا تضيعون أوقاتكم. وتعترفون أن ظلم الناس عيب ومنقصة، ومع ذلك تظلمون الناس ليل نهار. وتعلمون أن الأمانة فضيلة، ومع ذلك تخونون أمانات الناس، وتأكلون أموالهم. فما دمتم لا تنتهون عن السيئات، بينما ينتهي المسلمون عن كل ما هو سيئ، فكيف تقولون إن المسلمين يفتقرون إلى الخصال التي تنال بها الأمم الغلبة والانتصار؟

والمعنى الآخر للنـــزع هو الرغبة كما بيّنتُ من قبل، إذ يقال نـــزَع إلى الشيء اشتهاه، ونزَع إلى أهله اشتاق. فالنـــزع ليس رغبة عادية، بل هي تماثل رغبة المرء إلى الأهل، ومعروف أن المرء أشد شوقًا وحنينًا إلى أهله منه إلى غيرهم. فمثلاً إن رغبتك في لقاء بعض المعارف لا تماثل رغبتك في لقاء أمك ولا رغبة أمك في لقائك أبدًا. إذًا، فالله تعالى قد نبّه الكافرين بقوله ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ إلى أمر آخر يميز المسلمين عنهم، وهو أنكم ترغبون في بعض الحسنات لا كلها، ثم تكون رغبتكم إليها رغبة عادية، أما المسلمون فيحنّون إلى الحسنات كلها حنين الولد إلى أمه. إذًا، فالمسلمون يتحلَّون بكلتا الميزتين الضروريتين لازدهار الأمم.

باختصار، إن الخطوة الأولى نحو الرقيّ أن يتجنب القوم كلَّ ما يعيقهم عن الرقي من كسل وجهل وغفلة ومكابرة ونسيان وظلم ونـــزاع وسوء تعامل وقسوة وكذب وخداع وخيانة وفسق وفجور وما إلى ذلك من المساوئ والمفاسد. ويخبر الله تعالى الكافرين أن المسلمين يصدق فيهم قولنا ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾، فهم يمتنعون عن كل ما يجب اجتنابه، وينتهون عن المساوئ إذا نهوا عنها، وينأوْن بأنفسهم عنها غرقًا، أي يصبحون قاهرين لأنفسهم في ترك السيئات. أما أنتم أيها الكافرون، فلا تتحاشون السيئات رغم استنكاركم إياها. ثم إن المسلمين لا يقهرون أنفسهم في

مكافحة السيئات فحسب، بل يُصلحون الآخرين أيضا؛ ذلك لأن الإغراق يعني أيضًا التغلب على الآخر، إذ يقال "أغرق الناسُ فلانا: كثُروا عليه فغلبوه" (الأقرب). إذًا، فالله تعالى يصف المسلمين هنا أنهم إذا رأوا في أحد منهم عيبًا فلا يكتفون بعدم التورط في ذلك العيب فحسب، بل كأنهم يشنّون هجومًا موحَّدًا على صاحبهم ويتغلبون عليه.. أي إما أنهم يزيلون عيبه بإصلاحه أو يطردونه من بينهم ولا يتحملون السيئة في مجتمعهم. علمًا أن الدرجة الأولى هي أنهم ينأوْن بأنفسهم عن كل ما يعيق رقيهم، والدرجة الأسمى منها أنهم لا يحتملون السيئة في قومهم، وكلما رأوا سيئة هاجموها وجعلوا صاحبها مغلوبا إما بالانتصار عليه بإصلاحه، أو بطرده من بينهم، ولا يرضون ببقائه على سيئته. هاتان هما الميزتان اللتان تنهض بهما الأمم وتزدهر. والمسلمون متحلّون بهما.

باختصار إن قوله تعالى ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ يشير إلى المؤمنين الذين صفتهم الأولى أنهم ينأون بأنفسهم عن السيئات كما يتغلبون على الأشرار الذين يظهرون في مجتمعهم؛ وصفتُهم الثانية أنهم يرغبون في الصالحات كرغبة المرء في أهله وعياله، حيث يعني لفظ "النـــزع" الشوق والرغبة أيضًا. إذًا، فإنهم لا يكتفون باجتناب السيئات فحسب، بل يريدون التحلّي بالحسنات كلها من أمانة وعدل ورحمة ودماثة وجِدّ واجتهاد وعلم وشجاعة وسخاء وطهارة وعفة ومساعدة الفقراء واعتراف بالجميل وعناية بالجيران والمسافرين واليتامى والأرامل وغيرها من الحسنات. وأنهم لا يبذلون جهدهم للتحلي بهذه الخيرات فقط، بل يحبونها كحب الولد لأمه أو كحب الأم لولدها.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾.. أي أنه مما لا شك فيه أن فعل هذه الخيرات يكلفهم جهدًا ومشقة لما ورثوه من المجتمع من عادات سيئة، ولكنهم يرضون بكل صعوبة وعناء في هذا السبيل، إذ يقال: "نشَط الدلوَ من البئر: نَـــزَعَها وانتشلَها بلا بَكْرة" (الأقرب). والحقيقة أن المرء لا ينتشل الماء من البئر بدون بكرة إلا بعناء كبير. إذًا، فقد ذكر الله تعالى هنا من محاسن الصحابة أنهم يرغبون في أن يتقدموا في الصالحات بحيث لا يبالون بأي تضحية في هذا السبيل. بعض الناس

ينوون التقدم في ميدان الخيرات، ولكنهم يخافون عند الاختبار؛ لأن هذا يتطلب منهم الجهد والتضحية. ولكن الله تعالى يصف المسلمين بأنهم لا يرغبون في فعل الخيرات فحسب، بل هم ناشطون فيها.. أي يتحملون في سبيلها كل عناء ومشقة، ولا يزالون يعملون الخيرات ويخدمون المجتمع باستمرار بدون أن يكون معهم صاحبٌ أو مساعد أو حافز أو مساند أو مشجّع على ذلك.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾. إن من الطبيعي أنه إذا اجتهد المرء في عمله ومهر فيه، سهل عليه القيام به. فمثلا، لو أردت أن تعمل عمل الحدّاد ستبذل فيه جهدا كبيرا ووقتًا طويلاً، ومع ذلك لن تجيده بل ستفسده. أتذكر أنه في أيام طفولتي كان بعض النجّارين يعملون في بيتنا، فأعجبني عملهم وظننت أنه عمل بسيط أستطيع القيام به، وكنت حينها في التاسعة أو العاشرة من عمري، فلما ذهب هؤلاء لتناول الغداء أخذتُ قَدّومًا لأقشر به قطعة خشب، فلما ضربتُ الخشب بالقدّوم أصابني في إبهام يدي بدل أن يقع على الخشب، فجرحني بجرح عميق لا يزال أثره حتى اليوم. فالذي يرى النجّارَ يظن أن عمله بسيط، وأنه يستطيع القيام به، ولكنه حين يحاوله بالفعل يدرك صعوبة هذا العمل، مع أن النجارين لا يجدون فيه أي صعوبة، ذلك لأنهم قد أصبحوا ماهرين فيه لطول ممارستهم، وصاروا كالسابحين فيه. هذا ما يصف الله تعالى به الصحابةَ في قوله ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾.. أي أنهم يبذلون جهدًا كبيرا ويجدون مشقة في فعل الخيرات حاليًّا، ولكن سيأتي زمن يسبحون فيها سبحًا؛ فسيجدون في أنفسهم رغبةً ونشاطًا طبيعيين إلى هذه الحسنات ويصبحون سبّاحين في بحر الروحانية، وكما أن السبّاح يذهب في سباحته بعيدًا دون أن يجد فيها صعوبة وعناء، كذلك سيتمكن هؤلاء من فعل الخيرات بحيث يجدون في القيام بها رغبة ونشاطا طبيعيين ويلقون فيها سرورا وحبورا. يعاني الناس عناءً كبيرا حتى يتجنبوا قول الزور، أما هؤلاء فتركُ الزور لن يكون صعبا عليهم. ويجد الناس صعوبة كبيرة في التمسك بالحق، لكن هؤلاء سيتمسكون بالحق كأنه شيء طبيعي لهم. والحال نفسه بالنسبة إلى الحسنات الأخرى، فإنهم حين يقومون بها يجدونها موافقة لفطرتهم وِفاقا طبيعيا، ولن

ينحرفوا عنها، وكأن فعل الخير هو لبن الأم بالنسبة إليهم، فكما أن الولد يرضع لبن أمه بسهولة ورغبة، فلا يجد فيه مشقة، كذلك لن يرى هؤلاء في فعل الخيرات عبئا عليهم، بل سيقومون بها بشوق ونشاط.

ثم يقول الله تعالى ﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾.. أي بعد أن يجد هؤلاء نشاطًا طبيعيًا في فعل الخيرات سيتقدمون خطوة أخرى، فيتنافسون في الخيرات. بمعنى أنهم لن يكتفوا بفعل الخيرات بنشاط وعلى أحسن وجه، بل سيتسابقون في مضمارها فيما بينهم. بعد أن يجد كل واحد منهم السخاء والعطاء عملاً سهلاً طبيعيًا، سيحاول أن يكون أكثرهم سخاءً، بعد أن يسهل على كل واحد منهم أن يكون عفيفا، سيتحمس لأن يكون أكثرهم عفةً. وبعد أن يرى كل واحد منهم دماثة الأخلاق أمرا سهلا، سيسعى أن يكون أكثرهم دماثة. وبعد أن يسهل على كلٍّ منهم أن يكون رحيما، سيطمح أن يكون أكثرهم رحمةً. وهكذا سيبدأ سباق بينهم في مجال الخيرات، فيحاول كل واحد منهم أن يسبق الجميع.

وعندما يبلغون هذا المقام يتحقق فيهم قوله تعالى ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾.. أي أن كل واحد منهم سيرى أنه المسؤول عن قومه، فلا يقول إن هذه الخدمة وذلك العمل من مسؤولية فلان وفلان، بل سيرى أنه هو المسؤول عن المجتمع كله. عندنا في الهند مثل شهير عن طير صغير جدًّا اسمه (بِيا) – ويقال إن المثل عن طير صغير آخر اسمه (بِدّا) – هذا الطير ينام بالليل على ظهره رافعًا رجليه إلى السماء، فسُئل مرة: لماذا تنام هكذا؟ فقال: إن الخَلق جميعا ينامون ليلا، وليس هنا من يحمل السماء لو سقطت بالليل، فأنام بهذا الوضع لأحمي الدنيا لو سقطت السماء. إنه مثل مضحك في ظاهره، ولكنه ينطبق على البشر، فمن يبلغ درجة الكمال في الصلاح يتحمل مسؤولية العالم كله؛ إنه لا يفكر أن هذه هي مسؤولية فلان أو علان، بل يعتبر نفسه المسؤول الوحيد عن الجميع. وإذا تحلى أفراد قوم بهذه الميزة لم يهلكوا أبدا؛ فإذا نام أحدهم ظل الآخر ساهرا. من الطبيعي أن لا يخلد الناس جميعا إلى نوم الغفلة في وقت واحد، بل سينام بعضهم ويظل بعضهم ساهرين، أي أن هناك مَن يحميهم وينقذهم من الدمار.

باختصار، محال أن تُهزم أمة تتحلى بهذه الخصال، بل إنها ستتقدم باستمرار وتتغلب على العالم كله.

وأذكر الآن المعنى الرابع لهذه الآيات: يقال نــزَع الولدُ أباه ونــزَع إلى أُمه: أَشْبَهَه (الأقرب)؛ وعليه فالمراد من قوله تعالى ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ أن المسلمين يسعون جاهدين للتأسي بأسوة محمد ﷺ.

الواقع أن كفار مكة كانوا يزدرون أصحاب النبي ﷺ ويحتقرونهم، ولكنهم لم يصفوا النبي ﷺ بالمهانة والذلة. لا شك أن أحد المنافقين قد سمّاه مرةً صاغرًا ذليلا، ولكن فيما يتعلق بأهل مكة فقد كانوا معترفين بأنه ﷺ موصوف بكل الأوصاف الحميدة التي يجب توافرها في زعيم ناجح، ولم ينكروا قدراته وكفاءاته أبدا. لا شك أنهم كانوا يقولون عنه إنه فقير لا يملك مالاً، ولكنهم كانوا معترفين بمحاسنه الشخصية، وكانوا يسمونه صدوقا أمينا، ويحكّمونه فيما شجر بينهم من نزاعات قَبَلية. فكأن الله تعالى قد نبّه الكافرين في قوله ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ بأنكم اليوم تزدرون المسلمين وتقولون أنه ليس لديهم أية كفاءة أو قدرات، ولكن ألا تعرفون كيف تتولد الكفاءات العالية في الناس؟ هنالك سبيل واحد لذلك ألا وهو أن يتيسر لهم معلِّم قدير، وأن يتبعوه ويتأسوا به حق التأسي. أفلا ترون أن المسلمين يشبهون أباهم الروحاني محمدًا ﷺ، ويسعون جاهدين أن يتبعوا خطواته؟ وإن محمدًا هو ذلك الإنسان الذي لا يسع أحدًا منكم إنكار كفاءاته وقدراته؛ إذ كنتم تسمّونه قبل دعواه صدوقًا أمينًا، شأن الأنبياء الآخرين؛ إذ القاعدة أن الناس ينظرون إلى أنبيائهم قبل بعثتهم نظرة تقدير عظيم، معترفين بكفاءتهم الفذّة – كما يخبرنا القرآن الكريم أن قوم صالح عليه السلام قالوا له ﴿يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ (هود:٦٣).. أي يا صالح، كنا نعقد عليك آمالا كبيرة موقنين أنك ستتولى سيادة القوم يوما ما، ولكنك خيبت آمالنا كلها بدعواك – ولكن فيما يتعلق بأتباع الأنبياء فلا نجد مثالا واحدا أن أعداء الأنبياء لم يزدروهم ولم يحتقروهم. ذلك لأن الذين يؤمنون بالأنبياء في بداية الدعوة هم الفقراء الضعفاء عادة، الذين ينتمون إلى أدنى طبقات المجتمع غالبا، فيحتقرهم القوم ويزدرونهم. وكان غالبية من آمن

بالرسول ﷺ في بداية دعوته ضعفاء (البخاري، باب كيف كان بدء الوحي)، وكان أهل مكة يحتقرونهم احتقارًا شديدًا، كما لم يكن لهؤلاء المسلمين الأوائل باع في العلوم الظاهرة؛ إذ لم يوجد بين الصحابة الشباب مَن يعرف القراءة والكتابة غير الزبير. ولذلك قال الله تعالى هنا للكافرين إن المسلمين يسعون جاهدين ليكونوا مشابهين لأبيهم الروحاني محمد رسول الله ﷺ، وعندما ينجحون في سعيهم هذا، سيتحلون بما يتحلى به محمد ﷺ من قدرات وكفاءات. تعلمون أن محمدا ﷺ أمين، وما دام المسلمون يحاولون التأسي به ﷺ فلا بد أن يصبح كل واحد منهم أمينًا. وتعلمون أن محمدا ﷺ صدوق، وتروْن المسلمين يسعون جاهدين للاقتداء به، فلا بد أن يكونوا مثله ﷺ مثالاً للصدق والسداد. إذًا، فبرغم أنكم لا تروْن في المسلمين اليوم أي كفاءات، إلا أن رغبتهم في العلم ووجود الأسوة الحسنة بينهم سيزوّدهم بالقدرات المنشودة في نهاية المطاف.

مع العلم أن قوله تعالى ﴿غَرْقًا﴾ يعني أن المسلمين سيبلغون الغاية في اتباع الرسول ﷺ والتأسي به. ومما يدل على سعي المسلمين للتأسي بالنبي ﷺ إلى أقصى حد أنك لن تجد كلمة "السُّنّة" في أي ديانة غير الإسلام. ستجد في الديانات الأخرى كلمة "الحديث" أو "الوحي"، فيقولون مثلا: قال موسى وقال عيسى، أو أُوحيَ إلى موسى وأوحي إلى عيسى، ولكنهم لا يقولون أبدًا إن هذا من سنة موسى أو من سنة عيسى أو من سنة كرشنا أو من سنة رام شندر. إن اصطلاح "السنة" خاص بالإسلام وحده، ويحاول كل مسلم أن يعرف كيف كان الرسول ﷺ يقوم بمختلف الأعمال والمناسك. إذًا، فقد نبّه الله تعالى الكافرين في قوله ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ أن المسلمين سيبلغون أقصى درجة في اتباعهم لمحمد ﷺ، وإذا اتبعوه حق الاتّباع فلا بد أن يتحلوا بكفاءات مماثلة لكفاءاته، وإذا حاول كلٌّ منهم في مجاله أن يصبح محمدا صغيرا، فهل يبقى بعدها شك في قدراتهم ومحاسنهم؟

وليس أدَلَّ على شدة حرص الصحابة للتأسي بالرسول ﷺ مما فعل أبو بكر رضي الله عنه. لما رفضت القبائل العربية أداء الزكاة إثر وفاة الرسول ﷺ أراد أبو بكر حربهم، ولكن أوضاع البلاد كانت خطيرة جدا على المسلمين، فأشار إنسان شجاع مثل عمر

على أبي بكر بأن لا يعامل منكري الزكاة بهذه الصرامة، فأجابه أبو بكر: ما كان لابن أبي قحافة أن يلغي ما أمَر به الرسول ﷺ. واللهِ لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لقاتلتُهم على منعه، ولن أبرح حتى يدفعوه. فإذا كنتم لا تستطيعون حربهم معي فسأحاربهم وحدي. فانظر إلى شدة حرص أبي بكر على سنة الرسول ﷺ، فمع أن الظروف كانت حرجة جدا، حتى كان أكابر الصحابة يشيرون على أبي بكر بأن لا يحارب منكري الزكاة، إلا أنه كان مستعدًا ليخوض غمار كل خطر لتنفيذ أوامر الرسول ﷺ.

وكذلك قد حثّ الصحابة أبا بكر على عدم إرسال الجيش الذي كان النبي ﷺ يريد بعثه تحت إمرة أسامة، ولكن أبا بكر رد عليهم قائلا: لن أمنع الجيش الذي أمر الرسول ﷺ بإرساله ولو اقتحم العدو المدينةَ وسيطر عليها وأخذت الكلابُ تجرّ جثث المسلمات في شوارعها. (تاريخ الخلفاء للسيوطي: فصل فيما وقع في خلافة أبي بكر، والبداية والنهاية: فصلٌ في تنفيذ جيش أسامة✪)

وهناك واقعة أخرى لعبد الله بن عمر تدل على شدة حرص الصحابة على التأسي بالنبي ﷺ، فقد ورد أن ابن عمر كلما ذهب إلى الحج جلَس في مكان معين جلسةَ شخص يتبول، وكان يفعل ذلك في كل مرة، فقال له بعض أصحابه مرة: لم تجلس في هذا المكان هكذا كلما مررت به، مع أنك لا تتبول هنا أحيانًا؟ فقال: لقد رأيت النبي ﷺ يبول هنا، فأود أن أفعل كما فعل الرسول ﷺ كلما أمُرُّ بهذا المكان، فأجلس هنا كأنني أبول.

فإذا كان هؤلاء يتّبعون رسولهم في الأمور العادية لهذه الدرجة فما بالك باتّباعهم له ﷺ فيما يتعلق بالأخلاق والأمور الروحانية.

إذًا، فقد نبّه الله تعالى الكافرين في قوله ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ أن المسلمين أذلة وأراذل في أعينكم، ولكنكم تروْنهم يتبعون رسولهم الذي تعترفون بكفاءاته حق

✪ نص ما ورد في "البداية والنهاية" هو: "والله، لا أحلُّ عقدة عقدها رسول الله ﷺ ولو أن الطير تخطفنا والسباع من حول المدينة، ولو أن الكلاب جرّتْ بأرجل أمهات المؤمنين." (المترجم)

الاتّباع، فمع أنهم يفتقرون إلى الكفاءة اليوم، إلا أن كل واحد منهم سيصبح – حسب درجته – محمدًا صغيرًا نتيجة اتباعه له ﷺ، وسيتحلّون بما يتحلى به محمد ﷺ من خصال حميدة. إنكم تعترفون أنه ليس بين العرب كلهم زعيم كمحمد ﷺ، فلا بد أن يتصف المسلمون بمثل خصاله وشمائله ﷺ ما داموا يسعون جاهدين للتأسي به.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾.. أي أن من مزاياهم أنهم سينتشرون في أنحاء العالم، ذلك لأن من معاني النشْط الخروج والسفر؛ يقال: نشَط من المكان: خرج، ونشَط من بلد إلى بلد: قطَع. إذًا، فقد أشار الله تعالى بقوله ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ أن المسلمين سينتشرون في الدنيا. إنهم لا يحبّون أوطانهم حبًّا يمنعهم من التمسك بالحق، بل سترون أنهم سيهاجرون منها ولن يرضوا بالذل والضيم على أيديكم.

الحق أن الإسلام هو أوّلُ من علّم أن حب الوطن جيد بلا شك، ولكن حبّ الحق أغلى وأثمن من حب الوطن. فإذا كان بقاء المرء في الوطن يدفعه لإنكار الحق، فعليه أن يترك وطنه بدلاً من إنكار الحق، كما أشار الله تعالى إلى ذلك في قوله ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾(النساء: ١٠١). لا شك أن حب الوطن جيد ومحمود كما قال الرسول ﷺ: "حُبّ الوطن من الإيمان" (تشييد المباني ص ٢٥، والمقاصد الحسنة للسخاوي، رقم الحديث ٣٨٦)، ولكن إذا تصادم حب الوطن مع حب الحق والإيمان وجُعلتم عرضة للاضطهاد، فاتركوا أوطانكم مؤْثرين الحق عليها. الواقع أن حب الوطن يغلب على قلوب البعض بحيث إنهم لا يقدرون على تركه مهما تعرضوا للضيم في سبيل الحق، ولكن الله تعالى يقول إننا جعلنا المسلمين ناشطين، فلا قيمة عندهم للوطن إزاء الله تعالى، فسوف يضحّون بأوطانهم إذا تطلب الأمر. وبحسب هذه النبوءة قد ترك المسلمون وطنهم مرتين، مرة إلى الحبشة، وأخرى إلى المدينة.

إذًا، فقول الله تعالى ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ يعني أن المسلمين لا يحبّون أوطانهم حبًّا زائفا يمنعهم من الهجرة من أجل الحق، بل سيهاجرون من وطنهم بلا تردُّد إذا تطلب الأمر.

هذا، وقد أشار الله تعالى بقوله ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ إلى التضحية الجسمانية أيضا التي سيقدّمها المسلمون، ذلك لأن المرء لا يوفَّق إلى التضحية الجسمانية إلا إذا كان معتادا على الجدّ والاجتهاد وتحمُّل المشاقّ؛ فقد نوّه الله تعالى هنا إلى تحلّي المسلمين بهذه الخصلة المحمودة.

إذًا، فإن الله تعالى قد وصف هنا المسلمين بأنهم يمتنعون عن السيئات، كما يرغبون في فعل الخيرات بشدة. لا شك أنهم يتكبدون عناءً في التخلص من السيئات التي ورثوها من مجتمعهم، ولكنهم لا ينفكّون يبذلون كل ما في وسعهم بهذا الشأن، وليس هذا فحسب بل إن عندهم الكفاءة أيضا للتقدم في مجال الحسنات. وإنهم ليسوا قادرين على بذل التضحيات الجسمانية فحسب، بل قادرون أيضا على التضحية بأوطانهم. فلا تظنّوا، أيها الكافرون، أنهم سيتحملون ظلمكم دائمًا، بل نحذّركم من جماعات المسلمين الذين يخرجون من بينكم مهاجرين من أوطانهم. والحق أن ترك الوطن هو إحدى وسائل رقيّ الأمم.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾. يقال "سبَح الرجلُ: أي تصرَّفَ في معاشه"، وعليه فتعني هذه الآية أن هؤلاء لا يُثقِلون على قومهم بأخذ الرواتب على خدمة الدين، بل يكسبون معاشهم بالقيام بأعمال دنياهم بأنفسهم، وبالتالي يكثر في الأمة المتطوعون للخدمة.

والحق أن من أكبر العقبات التي تعيق رقي المجتمع هو قلة من يعملون مجانا، لذلك تدفع الحكومات رواتب للجنود والمدرسين والعاملين عندها، ولو عانى الإسلام من هذه المشكلة لما ازدهر المسلمون؛ إذ لم يكن لديهم أموال لدفع الرواتب، ولا سعةٌ لتحمّل هذه الأعباء الاقتصادية، ولذلك أودع الله في قلوبهم حبًّا للقيام بالمهام الدينية والاجتماعية مجانا؛ فكانوا يأكلون من بيوتهم ويصرفون أوقاتهم في خدمة

الدين والمجتمع، فلم يكونوا عبئًا على جماعة المسلمين، بل كانوا متطوعين يعملون لها مجانا.

باختصار، قد وصف الله تعالى في هذه الآيات الصحابةَ بأنهم يتجنّبون السيئات من ناحية، ويسعون جاهدين للتقدم في مجال الحسنات كلها من ناحية أخرى، ولا يترددون في التضحية بأوطانهم من ناحية ثالثة، ومن ناحية رابعة لا يطالبون بالمال أي أنهم لا يقولون ينبغي أن نُعطى الرواتب نظير العمل الذي نؤديه، كلا بل إنهم ينفقون على أنفسهم من بيوتهم كيفما استطاعوا، وينجزون مهام الدين والمجتمع مجّانًا؛ وهكذا تجد الأُمةُ متطوعين كثيرين. ثم إن هؤلاء يتبعون خطوات محمد ﷺ اتباعا كاملا، فإذا أمرهم بالحرب تجدهم على أُهْبة الاستعداد لها، وإذا أمرهم بإخراج الصدقة تجدهم جاهزين للتضحية بكل غال ورخيص، لأنهم مستعدون لفعل كل ما يأمرهم به محمد ﷺ. ثم إنهم لن يطالبوا بقرش واحد أجرةً على عملهم. فبذكر صفات المؤمنين هنا يحذر الله تعالى مشركي مكة أنهم لن يستطيعوا مواجهة هؤلاء المسلمين، لأن كل مسلم خادم لمجتمعه وجندي له، ومستعدّ لدفع ماله في سبيل أُمّته، فأنّى لهم أن يقفوا في وجوههم؟ لو استعدّ خمسون في المئة من أهل مكة للعمل لمجتمعهم لما قدروا على مواجهة المسلمين لأنهم كلهم يعملون لمجتمعهم. فلا مقارنة بين ٥٠% و١٠٠%. ثم إن الصحابة يعملون لمجتمعهم تطوعًا، ولكن أهل مكة يفتقرون إلى هذه الميزة. ثم إنهم يطيعون أوامر الرسول ﷺ بحب وتفان، ولكن أهل مكة لا يطيعون زعماءهم حبًّا وتفانيًا. ولذلك كله يحذر الله تعالى الكافرين بأنه مما لا شك فيه أن المسلمين أقل منكم عددًا، إلا أن الفتح لا يتوقف على تعداد القوم، بل متوقف على عدد العاملين فيهم؛ ولا شك أن عدد العاملين بين المسلمين أكثر منكم.

ثم يقول الله تعالى ﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾. والفاء هنا للعاقبة والنتيجة.. أي ما دام المسلمون متحلّين بهذه الخصال الحميدة فلا بد أن يتوفر للإسلام متطوعون كثيرون، وبالتالي لا بد أن ينتصر المسلمون على الشعوب التي لا يتيسر لها متطوعون. فما دام المسلمون كلهم يأكلون من بيوتهم ويخدمون الإسلام مجانا، فأنى

للكافرين الوقوف في وجههم؟ لا شك أن الكافرين أكثر منهم عددًا، ولكن العاملين بينهم أكثر منهم عددًا. مثلا، إذا كان عدد قوم يبلغ مليونا، وكان عدد المحاربين بينهم مئتين فقط، وكان عدد قوم آخرين بضع مئات، وكانوا كلهم محاربين، فلا بد أن ينتصر هؤلاء في الحرب على الأوّلين، فأنتم، أيها الكافرون، مخطئون في ظنكم أنكم ستنتصرون على المسلمين، لأن القوة تكمن في عدد العاملين في القوم، وليس في عدد أفراد هذا القوم. وحيث إن المسلمين يفوقون الآخرين شوقا وخدمة لمجتمعهم، فلا بد من أن يتسلموا زمام الحكم في يوم من الأيام، لذلك قال الله بعد ذلك ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾.. أي ما دام المسلمون متفوقين عليكم، أيها الكافرون، عملاً وخدمة فلا بد أن يخرج الحُكم من أيديكم ويصبح في أيديهم.

تجد بسبب هذه المعاني الأربعة التي بيّنتها تناسقًا وترتيبًا بين الآيات، ولن تجد فيها أي اضطراب كالذي تجده نتيجة تفسير المفسرين القدامى، حيث فسّروا ﴿النازعات﴾ بمعنى النجوم حينًا، وبمعنى الملائكة حينًا آخر، ثم قالوا إن الآيات التالية بالمعنى نفسه أيضا.

يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٧﴾

شرح الكلمات:

ترجُف: رجَفه يرجُف رَجْفًا: حرّكه فرجَف.. أي تحرَّكَ واضطربَ شديدا. ورجَف الرجلُ: اضطرب شديدا. ورجَفت الأرض: زُلزلت. ورجَف القوم: تهيئوا للحرب. (الأقرب، والمنجد)

التفسير: وقوله تعالى ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ معناه الأول أن العلامات المذكورة أعلاه ستبدأ في الظهور بشكل كامل في اليوم الذي ترجف فيه الراجفة؛ ومعناه الثاني أنه عندما تتحقق الأمور المذكورة أعلاه يأتي اليوم الذي نتحدث عنه، والذي ترجف فيه الراجفة. فحسب المعنى الأول يُعتبر اليوم هنا ظرفًا يشير إلى بداية ظهور هذه الأمور، وبحسب المعنى الثاني يُعتبر اليوم إشارة إلى تمام هذه الأمور واكتمالها.

ينبّه الله تعالى الكافرين بقوله تعالى ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ أنه سيأتي يوم يهبّ فيه المسلمون للحرب. إنهم صامتون على اضطهادكم الوحشي، فتظنون أنهم فقدوا الإحساس بالمقاومة من طول الاضطهاد واستمرأت قلوبهم الذل والهوان وماتت أحاسيسها، ولكنه ظن باطل لأن قلوبهم لم تمت، بل لا تزال تنبض بالحياة وستثور للانتقام منكم على ما تصبّونه على محمد ﷺ من أذى. كل ما في الأمر أننا قد منعناهم من الثأر، فلم يذيقوكم وبال جرائمكم حتى الآن، وهم يحترقون غيظًا كافّين أيديهم ومنتظرين الإذن منا. فاحذورا من يوم ترجف فيه الراجفة، أي حين تثور هذه القلوب المرهفة المضطربة، فترون ما نحذّركم منه، أما حاليًّا فإننا نقوم بتطوير أخلاقهم وتهذيبها، الأمر الذي لن يحدث لو أَذِنّا لهم بالحرب الآن، فندَعكم لتظلموهم حتى يتحلّوا بميزة الصبر وغيرها من الأخلاق السامية التي تتولد نتيجة تحمل الظلم. فلا تنخدعوا من وضعهم الراهن، بل فكّروا في اليوم الذي ستعرفون فيه أن قلوبهم المرهفة لا تزال تنبض بالحياة.

ولو فسّرنا كلمة ﴿النَّازِعَاتِ﴾ بمعنى جماعات الرماة، فسيعني قوله تعالى ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ أن هذه الرماية ستبدأ في اليوم الذي تثور فيه هذه القلوب المرهفة مُعرِبةً عن اضطرابها الشديد.

وحيث إن الرجف يعني تهيؤ القوم للحرب أيضا، فستعني هذه الآية أن هذه الأُمة التي قلوبها مستعدّة للحرب ومنتظرة لإذننا ستأخذ أُهْبتها للحرب فعلاً في نهاية المطاف.. أي أنهم يعشقون السلم والصلح، ولكنهم حين يرون أن اضطهاد الكافرين يضرّ بدين الله تعالى فسيهبّون للحرب بعد أن يأذن الله لهم بها؛ أو المراد أنه عندما تتحقق الأمور المذكورة أعلاه سنأتي بهذا اليوم.